

قطاع الثقافة

مكتبة الشيخ الشعراوى الاسلامية

من فيض الرحمن

الجزء الأول

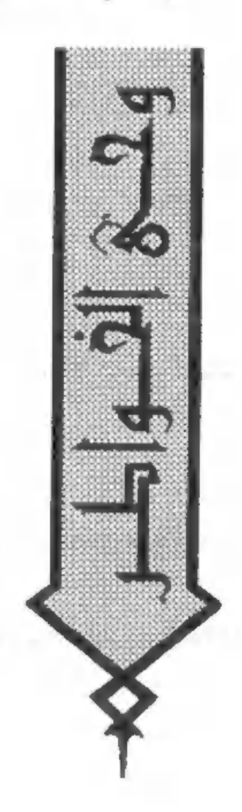
فضيلة الشيخ

محمد متولى الشعراوى





بقلم : الشيخ محمد السنراوى



فى خواطر مولانا الإمام العارف بالله فيض من الرحمن، والفيض من الرحمن تتجلى فيه صفة الجمال وصفة الكمال؛ حيث إنها إشراقة روح، ونفثات مُحبٍّ. فتلمح حساسية فى الضمير، وشفافية فى الشعور، وخشية مستمرة، وحذراً دائماً، وشوقاً إلى طريق الحياة فى كنف الله.

هذا الفيض تتجلى فيه وحدة الشعور بالإيجاب الفعَّال، ووحدة النفس بالإيمان النقى، ووحدة القلب بالحب الندى، ووحدة الكل للكل المطلق، يتجلى ذلك فى جلاء العقيدة

عندما تناجى العقيدة الوجدان، وتعقد من النفس عقداً أبدياً على التوحيد المفرد والتجريد المطلق.

يقول الحق سبحانه:

﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣) ﴾ [الأنعام]

وطريق الاعتقاد هو طريق السمو الراقى ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ [فاطر : ١٠]

وعلى طريق السمو بوحدانية الله الاتجاه نحو المعبود المختار، ولهذا الاتجاه مراتب أربع:

* **المرتبة الأولى: توحيد فى معرفة الله بأسمائه وصفاته وأفعاله.**
* **المرتبة الثانية: توحيد إرادى فى العقيدة والطلب، إما أمر أو نهى أو إلزام بطاعته فى أمره ونهيه.**
* **المرتبة الثالثة: الاعتقاد بصحة الشهود، فالكون شاهد عليه واحد، والفطرة تنطق به واحداً ، والقلب يتجه إليه واحداً : فالثنائية مرفوضة ، والثلاثية مبغوضة ، والرباعية نفاق ، والتوحيد إخلاص .**

* المرتبة الرابعة: إلزام الغير بمفهوم الإحساس، وهى الدعوة إلى الله بحكمة التقى وجلال النقى ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١٢٥) ﴾ [النحل] فإذا التزم العبد بمعطيات الاعتقاد كان عبداً لسيده وهو الله ، وعبد الله يعيش فى خيره ونعمه بخلاف عبيد البشر فهم يصدرون خيرهم لأسيادهم.

فسيادة الله فيها الحياة لمن أراد أن يحيا مع الله .

فى ظلال هذه الخواطر الشعراوية تقرأ فى كتاب " فيض الرحمن" لوناً من الحكمة، وعرضًا لدين طالما هَفَتْ إليه النفوس لتلتقى مع المعانى التى تروى ظمأً وتُحيى نفساً .

إن هذا العرض الجديد الذى يلبس ثوب التجديد هو منحة العصر ؛ ونفحة الوقت لأجيال ينتظرها المستقبل : فقد قال فضيلته فى فيضه عن قضايا الإسلام من منظور أصيل ومعاصر : فالإسلام انقياد : والانقياد يقتضى مسلمًا : ويقتضى مسلمًا إليه منقادًا ، ويقتضى مسلمًا فيه : وهو منهج الحياة : فالمسلم هو مَنْ ألقى زمام

حركته فى الحياة إلى غيره : يعتقد قدرته إليه فى تصريف أمور تلك الحياة : فليس من المعقول أن يُسلمَ قادر زمامه لعاجز : وليس من المعقول أن يُسلمَ حكيم زمامه لغبى : وليس من المعقول أن يسلم عالم زمامه لجاهل.

إذن: مالك الزمام واحد وهو الله ، والله جَلَّ عُلاه عندما أراد عمارة الكون جعل الملائكة فى وظيفة مأمورة، والكون فى وظيفة مسخَّرة، وكرَّم الإنسان فجعله مختاراً فأخضع له الكون يعمل له ويعمل به، وأنشأ له جنة التدريب، ووضع أمامه البدائل ليختار وبيَّن الله مراده من هذا الاختيار.

وكان على سيدنا آدم أن يختار الجنة ويترك الشجرة، ولكن حقيقة البدائل لا بد أن تأخذ مجراها، والبقاء للأصلح، فإذا كان آدم نسى ولم نجد له عزماً ، فالله غفر نسيانه وعلَّمه كلماتٍ فتاب عليه.

ومن هذا المنطلق كان الغفران لمن أذنب، فهو غفَّار وغفور وغافر وقابل التوب، وهذا من فيض الرحمن على كل إنسان.

أما إبليس الذى وظَّف نفسه للغواية والإضلال، فإن الله أنذره حسب مطلوبه : لعلم الله سبحانه أن الباطل يتعامى عن النور، وعند التعامى يضر نفسه، وهنا كانت اللعنة عليه، وعلى من اتبعه.

إن الفكر وليد البدائل، ولولا تدريب آدم على البدائل ما كان الفكر وهى الخاصية التى امتاز بها الإنسان. ونسأل : هل للفكر عمل فيما لا بديل له؟

يقول الشيخ: لا عمل للفكر فى أمر لا بديل له. إذن: للفكر عمله فى اختيار البدائل، وهنا يأتى العقل ليقول : هذا نفعله؛ لأنه أنفع من هذا. وهذا هو الرقى الإنسانى الذى امتاز به عن الحيوان؛ لأن الفكر عندما يتعطل بجنون، فليس على صاحبه تكليف؛ لأن آلة الاختيار عُطِّلت عنده، ولو كان هناك إكراه من قوى أعلى يسقط عنك التكليف. فعدم تكليف المجنون وعدم محاسبة المكره يدل على أنه لا يمكن أن يُحاسَب عليه ، لأنه مسلوب الإرادة.

من هنا نشأ الفكر فى جنة التدريب، وأعطى ظله على الفكر المعاصر، فنجد أن النشاطات الذهنية أنواع: نوع محكوم بإطار دين الله، ونوع محكوم بإطار غير دينى، ونوع محكوم من قوم لهم دين ولكنهم يعيشون فى السلب بلا إيجاب. وهذه الأنواع الثلاثة مصدرها ثلاثة أفكار عاشوا مع الحق وبدين الحق، وأفكار متدينة بدين يؤمنون أنه حق، إلا أنهم يعزلون مقومات الحياة عن دين الله.

وهناك أفكار ليس لها دين وتكره كل دين؛ لأن الأديان جاءت بالحق، والحق يكشفهم، فليس من الدين عندهم أن يظهر نهاره فيكشف

زيفهم، فهم يحاولون طمس معالم الدين والاستهواء والاستخفاف بشعائره، وعلمائه، وعندما يسمو الفكر مع المنهج تتحقق قضية الله فى خلقه فى قوله تعالى :

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (٥٦) ﴾ [الذاريات]

ومعنى العبادة فى صورتها الإجمالية أن تأتمر بالأمر ، وتنتهى بالنهى .

وعندما يتحقق لك آمرية الأمر والانتهاء عند نهيه، فتجد الهموم تلاشت لتعيش مع قوله تعالى :

﴿ لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾ [الحديد : ٢٣]

وهنا تعتدل موازين القيم فى الإنسان، وفى اعتدال القيم شفاء ورحمة.

هذه الخواطر الفيضية عاش معها شاب أديب، عاش ليلاً حتى ملَّ ظلامه، ووجد الفجر فى أحضان شيخه ، فجلس أمامه ليرى السَّحَر ، وعاش معه ليرى الضحى ، وسار يومه مع شيخه حتى وصل إلى العصر ، ومع العصر استقرت فى وجدانه عقيدة التوحيد فسجَّل لشيخه هذا الكتاب الذى عشنا مع بعض خواطره.

هذا الشاب الذى سار على أرض معذبة الثرى، يشق الليل بمصباح باهت، فلما امتلأ المصباح بشحنة الإيمان كان نوراً من فيض الرحمن.

أسأل الله أن يطيل فى عمر إمامنا وشيخنا حتى يكمل مسيرة الخواطر، لتنجلى بها الخواطر ؛جزى الله شيخنا العارف، الذى استنطق الحرف، وروَّض الكلمة، واسترضع الأسرار، وهداها لبناً خالصاً سائغاً للشاربين: هو فضيلة الشيخ الأمين محمد متولى الشعراوى.



من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن
من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن
من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن
من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن
من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن

الاستمتاع بالحياة



الإحساس بالأمن هو هدف الإنسان الضائع فى هذا الزمن، رغم أن الأمن والأمان لهما طريق واضح غاية الوضوح، هو أن نعرف كيف نتبع منهج الإيمان من مصدره الأصيل وهو القرآن. . .

إن الحياة فى الدنيا بالنسبة للإنسان هى حياة قصيرة.

زمانها محدد الأمد.

ومهما تمتع الإنسان وتنعَّم بما فى الوجود من خيرات ونعيم. . ومهما حقق الإنسان من لذة وانتصار ومجد، فإن الإنسان يعانى من فزع دائم بسبب مسألتين:

* **المسألة الأولى**: الخوف من الموت، فيترك متاع الدنيا ونعيمها.

* **المسألة الثانية**: أن تزول عنه النعمة أثناء الحياة نفسها.

لذلك فالإنسان يبحث عن حياة تؤمِّن له خيرات الحياة، ولا تزول فيها نِعَم الحياة.

ولأن الإنسان كما أراده الله هو سيد على جميع أجناس الكون.

ولأن الإنسان مخلوق من صانع الوجود.

لذلك فتأمين الإنسان بحياة لا يفوت فيها النعمة ولا تفوته فيها النعمة. . هذا التأمين يستدعى التأمل فى سؤال هو:

- كيف تم خلق الإنسان؟

إن الإنسان لا يعرف كيف تم خَلْقه .

وليس من المعقول أن يعرف بعقله كيف خُلق؛ لأن عملية الخلق حدثت للإنسان قبل أن توجد للإنسان أداة معرفة أو إدراك بالحياة .

والخلق بالنسبة للإنسان هو «غيب» لا يعلمه الإنسان .

لقد فوجىء الإنسان بوجوده فى الكون .

وكان على الإنسان مهمة شاقة هى أن يعرف ما يلى :

* كيف خُلق؟

* لماذا خُلق؟

* مَنْ خلقه بيديه؟

وكانت رحلة الإنسان لمعرفة إجابات هذه الأسئلة . . ولكنها إجابات ناقصة . . علمها ناقص وخيالها ضال ومضلل .

وحتى يتفرغ الإنسان لمهام سيادته على جميع أجناس الكون، فإن الله سبحانه وتعالى علَّم الإنسان ما لم يكن يعلمه .

وحين يعرض الله سبحانه وتعالى قضية الخلق فى كتابه الكريم «القرآن» . . فإن الحق سبحانه وتعالى يعلِّمنا حقيقة أساسية عن قصة خلق

الإنسان . . هذه الحقيقة هى أن الإنسان لا يستطيع أن يأخذ حقيقة بدء الخلق من أحد آخر سوى الله .

وأسلوب عرض الخالق العظيم لهذه الحقيقة يؤكد لنا أن الخلق أنفسهم حاولوا من قبل أن يتعرفوا على أسلوب خَلقهم عن طريق آخر غير طريق الله فوقعوا فى «وقاحة البحث» وارتبكوا فى «حماقات» تناولهم لهذه المسألة : ذلك أن التخمين فى هذه المسألة لم يصل بالإنسان إلى أية حقيقة .

ولذلك لم يترك الله سبحانه وتعالى هذه القضية دون أن يدلنا عليها فى كتابه العزيز «القرآن الكريم» . هذا القرآن الذى جاء مصدقاً لما بين يديه من الكتب . . وهو الكتاب المهيمن على كل الحقائق .

ولنا أن نلاحظ أن كلمة «مهيمن» التى يصف الله بها القرآن الكريم ، تعنى أن الكتب السماوية السابقة على القرآن قد يتناولها التحريف . .

إن الحق سبحانه وتعالى لم يكتَف بأن يصف القرآن الكريم بأنه «مصدّقاً بين يديه» من الكتب السماوية . . لأن هذا الوصف قابل لأن يتسع خيال الضلال ليقول : إن القرآن قد أصابه التحريف . .

إن الحق سبحانه وتعالى وصف القرآن بأنه مصدق لما بين يديه ومهيمن على كل ما سبق من كتب سماوية ، وهذا الوصف حكم واضح على أن

ما تختلف فيه الكتب السماوية السابقة على القرآن، فالحكَم والفيصل فى الاختلاف هو ما جاء فى القرآن.

والآية الواضحة الحاسمة فى سورة المائدة تقول:

﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٤٨) ﴾ [المائدة]

ومعنى هذه الآية بشكل حاسم «إننا أنزلنا إليك يا محمد الكتاب الكامل وهو القرآن، وهو يحمل الحق فى كل أنبائه وأحكامه، وهو موافق ومصدق لما سبقه من الكتب السماوية، وشاهد عليها بالصحة، وحكم فيما بينها من اختلاف؛ لأن الله حمى القرآن من التحريف وحفظه من التغيير، فاحكم بين أهل الكتاب بما أنزله الله عليك، ولا تتبع فى حُكمك شهواتهم ورغباتهم؛ فتنحرف عما جاءك من الله من حق.

ولقد خلق الله لكل أمة من الناس منهاجاً لبيان الحق، وطريقاً واضحاً فى الدين، ولو شاء الله لجعل كل الناس جماعة واحدة لا تختلف

فيما بينها ، ولكن الله جعل الناس تختلف ؛ ليختبرهم فيما أنزله من الشرائع ؛ وليتبين المطيع من العاصي ، وعلى الإنسان أن يسارع إلى الخير لأن مرجع كل إنسان إلى الله وحده ليخبرنا جميعاً فى النهاية بما كنا نختلف فيه ، ويجازى كلاً منا على عمله .

وهكذا نرى الأمر فى منتهى اليسر العقلى .

إن الكتب السماوية التى نزلت على الرسل قبل سيدنا محمد ﷺ كانت كتباً تحمل المناهج فقط . وأى رسول قبل سيدنا محمد كان يحمل المنهج الإلهى ليبلغه إلى الناس بلغة وكلمات من عنده . . مثلما فعل سيدنا محمد عندما أبلغنا بعض المنهج السماوى بواسطة الأحاديث النبوية الشريفة .

هكذا فعل موسى عليه السلام . . بلَّغ الناس ما جاء من منهج الله .

لكن أحبار بنى إسرائيل حرَّفوا التوراة وقالوا عن التحريف : إنه كلام الله .

وهكذا فعل عيسى عليه السلام . . بلَّغ الناس بالمنهج الإلهي ، وتلقف الحواريون كلمات عيسى لينقلوها بلغتهم إلى البشر . . وما فهموه من المنهج السماوى كان عرضة للفهم على قدر طاقتهم ؛ ولهذا وصل المنهج السماوى ناقصاً .

وهكذا نرى أن النقص فى الكتب السماوية السابقة على القرآن هو نقص النص غير الموثق من الله .

إن المعانى هى التى جاءت إلينا من خلال أفواه وعقول بشر ؛ ولهذا فإن هذه المناهج السماوية كانت تحمل التكليف إلى الرسول ليبلغها إلى من حوله . . ثم هى أيضاً تحمل التكليف لمن عرف المنهج من الرسول أن يبلغه إلى الآخرين .

وما دامت المهمة هى تكليف فقط . . فالتكليف فى حد ذاته معرَّض لأن يُطاع ولأن يُعصى .

وهكذا رأينا أن الذين حملوا التكليف بالمنهج السماوى عن الرسل الذين قبل سيدنا محمد ﷺ .

رأيناهم يعصون الله ، فنسوا من منهج الله أجزاء .

أو كتموا بعض ما لم ينسوه .

وما لم يكتموه حرَّفوا فيه .

وياليتهم وقفوا عند هذا الحد .

لكنهم لم يقفوا . . بل أضافوا من عندهم أشياء وقالوا : هى من عند الله .

ولهذا نزلت الآية الكريمة فى سورة البقرة:

﴿ فويلٌ لِّلَّذين يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ (٧٩) ﴾ [البقرة]

وهكذا نعرف أن النص الإلهى من الكتب السماوية السابقة على القرآن هو نص لم يصلنا بدقة كما أراد الله. إنها نصوص غير موثَّقة.. كانت نصوصاً تحمل المنهج السماوى عندما وصلت إلى أى رسول ولكن الأتباع حرَّفوها.

ولهذا أراد الله فى نصوص القرآن أن تكون منهجاً ومعجزة، ولم يَعُدْ مسموحاً للبشر أن يتدخلوا لا فى المنهج ولا فى المعجزة.

ليس للبشر أن ينسوا (١) شيئاً، أو يكتموا شيئاً، أو يحرفوا شيئاً، أو أن يزيدوا شيئاً.

هذا هو حكم الله فى القرآن يأتينا بالآيات الفاصلات فى سورة الحاقة:

(١) النسيان هنا بمعنى التناسى والتغافل الناتج عن الإعراض، وذلك مثل قوله تعالى ﴿ ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى (١٢٤) قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا (١٢٥) قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى (١٢٦) ﴾ [طه]

﴿ فلا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (٣٨) وَمَا لا تُبْصِرُونَ (٣٩) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ [1] (٤٠) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ (٤١) وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ (٤٢) تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٤٣) وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ (٤٤) لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (٤٧) وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ (٤٨) وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ (٤٩) وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ (٥٠) وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ (٥١) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٥٢) ﴾ [الحاقة]

ذلك هو القرآن، يحسم قضية أنه منهج ومعجزة. إن الله يقسم بما يبصره الإنسان وبما لا يبصره.. إن القرآن من الله خالق الدنيا جاء على لسان رسول رفيع المكانة. ليس قول شاعر ولا كاهن.. فقد سبق أن جاء المنهج للبشر كمنهج فقط على ألسنة الرسل، ولكنه تعرض للإنساء فى ذاكرة الإنسان.

---

(١) جاءت هذه الآية فى القرآن مرتين: الأولى: هذه التى فى سورة الحاقة، والمقصود بالرسول هنا هو سيدنا محمد ﷺ، فالقرآن من قوله على سبيل أنه الناطق به، والمبلِّغ له.
والثانية: فى سورة التكوير: ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١٩) ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) ﴾ [التكوير] والمقصود به جبريل عليه السلام.

فهذا هو القرآن، تنزيل محفوظ من رب العالمين الذى تعهد البشرية بأن يخلق فيها قبساً من نوره ليهذب من أخلاق الإنسان ويحسن تربية الإنسان لنفسه. لكن لو ادّعى أحد على الله كلمات لم يقلها فليس هناك ما يمنع من أن ينال عقاب الله، وليس هناك من البشر مهما بلغت قوته من هو بعيد عن عقاب الله.

والقرآن منهج ومعجزة؛ منهج ينير طريق الذين يمتثلون لأوامر الله ويجتنبون ما أمر باجتنابه. ولكن هناك من ينكر ذلك.. رغم أن القرآن حق ثابت.

هكذا نرى أن الله أنزل نصاً واضحاً كمعجزة ومنهج ولا دخل فيه لأحد من البشر؛ لذلك سيبقى القرآن إلى آخر الزمان، فالكتب السابقة على القرآن كلّف الله أهلها أن يحافظوا عليها ولكنهم لم يحافظوا عليها، أما القرآن فالله حافظه، يقول الحق سبحانه:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩) ﴾ [الحجر]

وعلى ما فى القرآن من إعجاز وبيان ومنهج، إلا أنهم ينكرون ذلك لضلالهم.

تأمّل كلمات الله فى سورة المائدة:

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ (١) بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (٤٤) ﴾

[المائدة]

فالحق جلَّت قدرته يقص علينا قصة قوم موسى الذين نزلت إليهم التوراة بالحق والهداية وبيان الأحكام التى يحكم بها النبيون الذين أسلموا لله. وكلف الله أتباع موسى بحفظ هذه التعاليم وألا يستبدلوها بما يمكن أن يتيح لهم الكسب، لكنهم فعلوا عكس ما أمر الله. إن القرآن يحكى قصة التكليف والعصيان؛ تكليف الخالق لقوم موسى بالاستحفاظ على ما قال النبى موسى من أحكام.. لكن قوم موسى أهدروا التوراة ولم يقوموا بالوفاء لرسالة الله.

إذن: فالقرآن محفوظ بحفظه؛ لأن حفظ البناء والحكم ثابت بالوضع والنص.

هكذا نرى أن بقاء القرآن خالداً هو مهمة من بيده مقاليد السموات

(١) الذين هادوا: هم اليهود، وأصل الكلمة التوبة والرجوع إلى الحق. والربَّانيون هم العلماء العبّاد. أما الأحبار فهم العلماء المتبحرون فى العلم.

والأرض؛ ولذلك لم توكل هذه المهمة لأحد من البشر . . وكانت معجزة القرآن أنه «منهج للحياة ومعجزة إلهية فى آن واحد» .

أما هيمنة القرآن على كل ما سبقه من مناهج، السبب فيها أنه غير قابل للتحريف، والتكليف فيه للإنسان واضح ومحدد، ولقد تناول القرآن المسألة الكونية من بدايتها إلى نهايتها، حتى لا يترك بعد ذلك أى نقطة دون توضيح . . ولا يترك أى سؤال دون إجابة . . بداية من السؤال عن مهمة الإنسان فى الحياة، إلى مسألة كيفية خلق الإنسان . . إلى مسألة الحركة التى تنبعث من الروح فى مادة الإنسان، إلى حركة القيم التى على الإنسان أن يتمسك بها كمنهج فى الحياة . . كل ذلك أراد الله للقرآن أن يغطيه وأن يشرحه حتى يتحقق للقرآن أنه المهيمن على كل الكتب السماوية . ولو أن المسألة كانت مجرد رسالة فهى وصلة فى حلقة من حلقات الإنزال السماوي . . لو كان الأمر كذلك لاكتفى الله فى القرآن بأن يأتى الزائد فقط من منهجه .

لا . .

إن القرآن جاء بكل المسائل من أساسها .

وحين نتكلم فى الإنسان . . فالكلام فى مسألة الإنسان تعنى أننا نتحدث فى معرفة كيف خلق الله ذلك الإنسان .

إن الله سبحانه وتعالى يترك للبشر فى صناعتهم أن يصنعوا أشياء

كانت معدومة ، يمدنا الله بالعقل لنفكر ، وبالمادة لنصنع منها ما نشاء . . لكن صناعتنا تختلف عن صناعة الله . .

مثلاً . .

هدانا الله أن نصنع كوباً لنشرب فيه . .

لكن قبل أن تصنع البشرية الكوب . . كان البشر يشربون .

إذن : ما يصنعه الإنسان يؤدى إلى ترف فى حياة الإنسان .

وما صنعه الله هو الضرورات التى تتوقف الحياة بدونها ، والحق سبحانه وتعالى يكفل لنا الضرورات الأساسية للحياة ، وهو معجزة يجب أن ينتبه لها العقل البشرى .

إن ضرورات الحياة هى التى امتلكها الله وصنعها الله ورتَّب ملكيتها ، وهذا دليل على أن الذى فعل ذلك ذو حق مطلق ، لا يترك صغيرة أو كبيرة فى حياة الإنسان .

إننا إذا تأملنا درجات ملكية الأساسيات التى تكفل الحياة نجدها : الطعام والشراب والهواء ، فإذا كان الطعام من إنتاج الأرض ، ويمكن للبشر أن يتدخلوا فى إنتاجه وصنعه . . فإن الحق سبحانه وتعالى قد صمَّم جسم الإنسان بحيث يتحمل الصبر عن الطعام مدة تطول عن أسابيع ، وعلى حسب ما فى الجسم من شحم ولحم .

وإذا كان الماء يحتاج الإنسان إليه بدرجة أهم من الطعام فإن الله صمَّم

جسم الإنسان بحيث يسمح له بالبحث عن الماء.. ثلاثة أيام وقد تطول إلى عشرة أيام. والماء أيضاً يمكن للإنسان أن يتدخل فى ملكيته.. كالآبار التى تملكها القبائل أو مصادر المياه المختلفة.

ولكن الحق سبحانه وتعالى خلق الهواء فى كل الوجود.. ذلك أن الإنسان لا يطيق الصبر عن الهواء؛ ولذلك فالحق سبحانه وتعالى لم يجعل الهواء فى إطار ملكية أى إنسان.

فمن الممكن أن يتحكم إنسان فى طعام بشر آخرين.. فيصبروا أياماً؛ لأن فى النفس البشرية والأجساد الآدمية رصيداً قوياً تعيش به فترة إلى أن تتخلى اليد المسيطرة المنَّاعة للطعام عن سيطرتها، أو إلى أن يفكر الإنسان فى حيلة يصل بها إلى الطعام، أو أن يلجأ الإنسان إلى مكان آخر يطلب منه الطعام، أو أن تنزل الرحمة فى قلب المتحكم فى الطعام، فيعرف أنه خليفة لله، ولا يصح أن يمنع ما أعطاه الله له عن الناس..

والماء.. إن الإنسان لا يعيش دون الماء فترة طويلة.. لذلك كان احتكار الطعام أكثر من احتكار الماء؛ لأن حاجة الإنسان إلى الماء أقوى من حاجته إلى الطعام.

أما الهواء.. فلنا أن نتخيل ماذا يحدث لو امتلك إنسان حق تنفس إنسان آخر؟ إن الله لم يجعل الهواء ملكية فى يد أحد؛ لأنه يعلم أن الهواء عنصر ضرورى لحياة الإنسان، ولا يمكن لأى إنسان

أن يصبر عن الهواء .

وفى ترتيب الملكية للضرورات الأساسية لحياة الإنسان تدبير إلهى له مطلق القدرة .

إنه تدبير إلهى له مطلق الحكمة .

وهكذا نرى الذى خلقنا من عدم ولم يبخل علينا ، بل أمدَّنا بكل عطاء .

إننا بهذا الفهم نتقبل قصة الخلق . . خلق الحق جل وتعالى لنا . .

وهيا نرى ماذا ترك الله لنا من أشياء لنصنعها .

ولنقارن بين ما خلقه الله وما خلقه الإنسان .

إن ما يصنعه الإنسان يتجمد فى حدود ما صنع الإنسان . . صنع الإنسان الكوب . . فلا يتحرك الكوب ولا ينمو ولا يتزوج أو ينتج نسلاً من الأكواب .

إن ما يصنعه الإنسان يتجمد عند حدود الشكل الذى أوجده الإنسان ؛ ذلك أن الإنسان لا يملك من أمر الروح شيئاً ؛ لأن الروح من أمر الله .

وقد شاء الله لنا أن نعرف أن لكل شيء صانعاً . وهو صانع الإنسان . . وصنعة الله تتجدد وتكبر وتتناسل وتتحرك ، ولا حدود لإبداع الله فى حركة الإنسان .

أما الإنسان فصناعته محدودة، إذا زرع الإنسان شجرة فهى تطرح ثماراً . . وليس فى مقدور الإنسان أن يزرع شجرة تثمر أكواباً .

إننا نتعلم أن كل شيء مهما كان تافهاً لا بد له من صانع خلقه، وعلى قدر سمو الصنعة تكون مكانة الصانع .

تتجمد صناعة الإنسان عند حدود وجودها .

وتتألق صناعة الله بلا حدود بأمر هو «كن فيكون» .

ولا أحد من البشر يملك تلك القُدرة «كن فيكون» .

لا أحد من البشر يملك إطلاق الخلق .

لا أحد من البشر يملك قدرة الخلق من عدم .

ولم يضن الله سبحانه على الإنسان بأحلى الصفات . . فقال :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ﴾ [المؤمنون]

إن الإنسان عندما ينظر إلى أصل تكوينه يجده خلاصة الطين، ثم بعد ذلك نطفة أى : ماء فيه كل عناصر الحياة الأولى، وتستقر النطفة فى

الرحم وهو مكان محصَّن باللين، ذلك أن الرحم لين من أنسجة لينة تقع بين عظام حوض المرأة، وهو من أصلب العظام فى سنوات إنجاب المرأة، وعندما تستقر النطفة ويتزاوج الحيوان المنوى ببويضة المرأة يصبح الناتج قطعة من الدم التى تتحول إلى لحم.. ثم تصير هيكلاً عظمياً، ثم يتم كساء العظم باللحم.. ثم فى تمام الخلق ينزل الطفل مختلفاً عن البداية التى بدأ منها.. ولا يوجد من هو أقدر إبداعاً من الله[1].

هكذا نرى أن خلق الله للإنسان فيه تكريم للإنسان.

وجعل الله للإنسان قدرة أن يصنع بعض المصنوعات التى تطورٌ الحياة، ولكنها لا تصل إلى قدرة الخالق العظيم.

خلق الله الإنسان من عدم، ثم تكاثر الإنسان ونما.

هكذا أنصف الله الإنسان.

فما أجدر الإنسان بأن ينصف الله، فيعترف بأنه سبحانه وتعالى أعظم الخالقين.

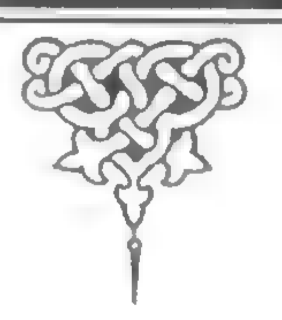
منح الله الإنسان سيادة الكون.

«أليس خالق الدنيا بجدير أن ننتبه إلى عظمة قدرته، وأن نملك الانتباه لنفهم عنه».

(١) عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «إن أحدكم يُجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوماً، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل الله الملك فينفخ فيه الروح. ويؤمر بأربع كلمات: يكتب رزقه وأجله وعمله، وشقى أو سعيد» أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٢٠٨) ومسلم فى صحيحه (٢٦٤٣).

من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن
من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن
من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن
من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن
من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن

الاتقان





كلنا نرغب فى أن نفهم معنى الجمال فى الحياة، فإذا أحسسنا به وانفعلنا بمنهج الله قادنا إلى الرقى من الجمال المطلق - الذى يربّى الذوق وينمّى الإحساس بفضل الإنسان- إلى جلال الله.

قال الحق تبارك وتعالى:

﴿ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ[1] فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا[2] وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ[3] عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٢٢) ﴾

[الأعراف]

فعندما ساق الشيطان آدم وحواء إلى الأكل من الشجرة التى نهى عنها الله.. انكشفت سوءة الاثنين، وكذلك نعرف أنه قبل المخالفة لم تظهر السوءة، وإنما ظهرت السوءة بعد المخالفة، وفى ذلك رمز إلى منهج الله فى الأرض.

إن أراد الإنسان أن يعرف صدق المنهج الإلهي.. فلينظر إلى الكون.. إن حركة الكون بالإسلام لا عورة فيها، وإن لم نجد فى المجتمع

---

(١) دلاّهما بغرور: أى: أطمعهما إبليس فى المعصية بأن غرهما بالأكل من الشجرة.
(٢) سوءاتهما: عوراتهما.
(٣) طفقا: جعلا. يخصفان: أى: يلزقان الورق بعضه على بعض ليسترا به عورتيهما.

عورة من العورات ولا سوءة من السوءات فلنعلم أن منهج الله مطبَّق .

ولكن إذا رأى الإنسان عورة فى المجتمع يستنكرها ويشمئز منها ويرى فيها كل ما هو قبيح وغير جميل . . فليعلم الإنسان أن منهج الله قد أصبح معطَّلاً . وحينئذ يجب أن يدرك الإنسان أن المخالفات والعورات هى جمال فى الوجود وليست قبحاً فى الوجود كما قد يتخيل الإنسان . لأن العورة حينما تظهر بعد مخالفة لأحكام الله فهى تدل على أن منهج الله فى ذاته سليم ، ولكن النقص فى التطبيق ، ولو لم تظهر العورة مع وجود المخالفة لكان المنهج غير سليم .

إذن : فوجود العورة مع المخالفة دليل على سلامة المنهج .

ولهذا نقول : إن الجمال فى الكون ليس أن يستطيب الإنسان النظر فى الكون فيجد كل شيء جميلاً .

لا . .

إن الجمال فى الكون أن تكون النتائج متناسقة مع المقدمات .

وحتى نزيد الأمر وضوحاً فلنأخذ مثلاً من الحياة . إذا نجح تلاميذ مدرسة من المدارس . . فقد ينظر البعض إلى ذلك نظرة سطحية ويقول : هذه مدرسة جيدة وهذا النجاح جميل . . لكن النظرة بعمق تستطيع أن

ترى أن النجاح لا يكون جميلاً إلا إذا جاء كنتيجة منطقية مع اجتهاد التلاميذ. وأما أن ينجح التلاميذ كنتيجة بدون مقدمات من الاجتهاد.. فالنجاح هنا يصبح قبيحاً.

لماذا؟..

لأن التلاميذ إذا نجحوا مرة واحدة دون تقدير للاجتهاد، فإن ذلك يعنى أن التلاميذ لن يجتهدوا بعد ذلك.. فيشيع قبح الجهل فى الوجود ويصبح واقعاً.

لكن لو نجح المجتهد ورسب غير المجتهد، فإن رسوب غير المجتهد سيكون هو عين الجمال فى الحقيقة.

لماذا؟..

لأن النتيجة تكون وفق المقدمة.

وإذا تعلم الناس أن ينظروا إلى الجمال على أنه نتيجة تتفق مع المقدمات.. لعرف الناس أن القبح فى الوجود جمال؛ لأن القبح فى الوجود سينبه الناس إلى شيء مفقود من منهج الله، وكأن القبح صرخة تستنجد وتقول:

- يا قوم.. هنا حد من حدود الله معطَّل.

فلو لم يوجد القبح.. لانتشر القبح فى كل شيء سائر فى الوجود.

وكذلك يمكننا أن ننظر إلى الألم، إن الألم الذى يتألم منه المريض ليس شراً ولكن هو صرخة تقول: «يا نفس هنا داء لا بد من علاجه» وهكذا يكون الألم نفسه هو طريق العافية؛ لأن الداء لو ظل ينتشر فى الجسد دون ألم، لذهب الإنسان ضحية للمرض فجأة، ولكن الألم المصاحب للمرض هو صرخة استنجاد بأن هناك داء يستدعى العلاج، وهكذا علينا أن نرى القبح فى الوجود، إن القبح فى الوجود يدل على أن هناك جزءاً معطلاً من منهج الله، وحين نرى أن قبحاً فى الوجود قد جاء نتيجة تعطيل جزء من منهج الله فسنعرف سر القبح ونشخِّصه ونضع له الدواء.

فيكون القبح هو وسيلة إلى مجيء الجمال بعد ذلك.

إذن..

فحين ترى شيئاً لا يعجبك فى الكون فقل: هذا هو الجمال.

لماذا.. لأن القبح يكشف لك أن هناك شيئاً معطلاً فى منهج الله.

ولأنه لو ظل الجمال موجوداً فى الكون مع وجود مخالفة لمنهج الله لقال قائل: «لا ضرورة لمنهج الله، فقد خالفنا المنهج وظل الجميل جميلاً والوجود حسناً».

لكن حين يخرج أحد عن منهج الله فسنرى قبحاً فى ناحية من نواحى الوجود.

ولهذا يجب أن نفسر الجمال بمعناه الحقيقي.

إن الجمال ليس هو ما تستطيبه نفس الإنسان.. لأن الإنسان قد يستطيب الشر وقد يستطيب المعصية.. وليس فى ذلك جمال.

لكن الجمال بمعناه الحقيقى أن تكون النتائج متفقة مع المقدمات.

ولنضرب لذلك مثلاً:

إذا قيل لرسامى الكاريكاتير فى العالم: «ارسموا الشيطان».. ورسموا الشيطان.. فمن منهم يأخذ الجائزة الأولى؟.. هل يأخذها من رسم أجمل صورة، أم يأخذها الذى رسم أقبح صورة؟

من المؤكد والسليم أن يأخذ الجائزة من يرسم الصورة القبيحة.. لا لشيء إلا لأننا طلبنا منه صورة للشيطان، ولم نطلب صورة للملاك.

إذن: فعلينا أن نرى الجمال فى الأشياء التى تكون فيها النتيجة متسقة مع المقدمات.. مثلاً ليس من الغريب أن يوجد فى البيت القذر ذباب.. هنا يمكننا أن نرى بالمقارنة قبح هذا المكان لقذارته، فيعطينا الجمال للبيت النظيف. إذن: أنت لا تعرف الجمال إلا برؤية نقيضه، وهذه المقارنة تبين لك عدم المساواة بين ما هو قبيح وما هو جميل.

إن البديهيات أن يتكاثر الذباب مع القذارة، وأن يكون البيت النظيف خالياً من الذباب، لكن لو تساوى القذر مع النظيف فإن الدنيا كلها تصبح قذرة.

إذن: فوجود القبح هو وسيلة نتعلم بها تأصيل الجمال ومعرفة الحسن والطيب.

ولنا هنا أن نعرف أن هذه هى رسالة الشر.. إن رسالة الشر فى الوجود هى أن يخلق الشوق فى الناس إلى الخير.

لذلك ترك الله عناصر الشر فى هذا العالم ليستبقى بها عناصر الخير.

ولعلنا نعرف ذلك إذا نظرنا إلى التجارب المادية التى نُحصِّن بها أنفسنا ضد شر واضح.. مثال ذلك أننا حين نخاف من وباء فإننا نُطعِّم الجسد الخالى من الكوليرا مثلاً بميكروب الكوليرا بعد تجهيزه ليعطى مناعة للجسم السليم.

إذن: فالشر إن لم يوجد فى النفس يجب أن نوجده لنرى كيف تتجه النفس إلى الخير.

ومثال آخر هام:

نحن نشعر أن دين الإسلام قد يُهمَل من المسلمين كسلاً.. وقد يهمل المسلمون دينهم عن غفلة.. ولكن إذا تعرض دين الإسلام لأى

اضطهاد . . فإنك تجد غيرة الإسلام قد تأججت فى نفوس الناس جميعاً، وأصبح البعيد عن منهج الإسلام يتهافت على مواقع نصرة الإسلام.

لماذا؟ . .

لأن المسلم عندما يحس بالخطر أو الشر، فهو كأى إنسان ذكى يندفع تحدياً للشر . .

إذن: فوجود عناصر الشر هى من معانى الاستبقاء للخير، وهى الصرخة التى تنادى دائماً أن هناك شراً يجب أن نقاومه وأن نقاوم هذا الشر فى نفوسنا.

ونعود إلى قول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٢٢) ﴾ [الأعراف]

عَلاَمَ يدل هذا الحديث الواضح للقرآن؟

إن ذلك الحديث الواضح يشرح لنا أن السوءات فى المجتمع لا تحدث إلا إذا تمت مخالفة لمنهج الله.

لقد كان آدم وزوجه يأكلان فى الجنة ويأكلان بالقدر الذى حدده الله،

وما دام الأمر هو رمزية للتكليف وعملية تدريب فى الحياة.. فقد يقول البعض منا: «إن الله فى جنة الآخرة سيقول لنا كلوا ما شئتم». وقد جاءت أحاديث رسول الله ﷺ تصور لنا الجنة فى الآخرة على أنها استمتاع وفير بلا فضلات [1]. وقد يتساءل البعض منا: «كيف نأكل ولا تحدث لنا فضلات».

إن الإجابة البسيطة الواضحة هى أننا سنأكل فى الآخرة بأسلوب مختلف عن تناولنا الطعام فى هذه الدنيا.

هنا فى هذه الدنيا يأكل الإنسان باختياره.

أما فى الآخرة فالإنسان يأكل ما يشتهيه بأمر من الله.

ليس فى الآخرة سعى وراء الرزق أو أسباب يجرى إليها الإنسان.

إن «الأسباب» فى الآخرة تنتهي، ونعيش فى حضرة «المسبِّب لكل شيء».

إن المُهَيِّئ لكل شيء فى الجنة هو الله، وهو يستطيع أن يعطى الإنسان لذة الطعام وفاعلية الطعام، ولا تبقى فضلات للطعام.

ثم.. ما معنى الفضلات؟

---

(١) عن جابر بن عبد الله قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون، ولا يتفلون ولا يبولون ولايتغوطون ولا يتمخطون. قالوا: فما بال الطعام؟ قال: جشاء ورشح كرشح المسك، يلهمون التسبيح والتحميد كما تلهمون النفس» أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٨٣٥).

إن معناها أن الإنسان أدخل فى جوفه أشياء لها مهمة محددة، ثم يستخلص الإنسان منها ما هو مفيد له، ويطرد ما هو زائد أو ضار.

إذن: فخالق كل شيء يستطيع أن يخلق المهمة لما يدخل فى جوفك دون أن يكون بها ما يطرد أو ما هو زائد عن الحاجة أو ما هو ضار.

وآدم وزوجه عندما أوجدهما الله فى «جنة التدريب» كانا يأكلان بأمر الله.. يأكلان من هذا ولا يأكلان من ذلك.. يأخذان من الغذاء على قدر الطاقة وليس هناك فضلات.

لكن لما ذاقا الشجرة.. بدأ اختيار الاثنين يدخل فى العملية. وبدأت المعدة والأمعاء فى عملها من تخمير للطعام وطرد للزائد.

وقد يقودنا ذلك إلى سؤال هو:

ما الفرق بين المخْرجَين وهما العورتان «القُبُل» و«الدُّبُر» – وبين المدْخَلين: «الأنف» و«الفم»؟

لماذا نعتبر المخْرجَين عورة ولا نعتبر «الأنف» و«الفم» عورة؟

يمكننا أن نجيب بما يلى:

– إن العورتين تخرج منهما مستقذرات الإنسان، ولذلك جاءت «العورية» من هذا الشأن، وليست «العورية» أن كليهما ثقب؛ لأن الأنف ثقب ولأن الفم ثقب، ولا يطلق على أى منهما «عورة».

فكأن آدم وزوجه قبل أن يأكلا من الشجرة فى جنة التدريب . كانا يأكلان بما قدره الحق لهما ، لكن عندما أكلا من الشجرة فقد أكلا بمواصفات نفسيهما ، وأعطيا للجسدين أكثر من المطلوب . وما دام قد حدث اختمار مما أكلاه فلا بد أن يخرج الريح ، ولا بد أن يحدث التبرز ، وتنبه الاثنان إلى أن هذه مسألة غير نظيفة .

إن هذا رمز على أن من لم يتخذ منهج الله فسوف تظهر عورته .

إن هذا رمز على أن منهج الله وقاية للإنسان من أن تظهر عوراته الحسية أو المعنوية .

أما إذا ظهرت العورات فلنعلم أن منهجاً من مناهج الله قد عُطّل .

والله جل وعلا بعد أن استوفى التجربة مع آدم وزوجه ؛ أمراً ، ونهياً ، وتحذيراً من النفس ، وتحذيراً من الشيطان ، واختباراً بالوقائع [1] . انتهى كل ذلك إلى أن المخالفة أدت إلى اكتشاف عورة .

وصدر الأمر السماوي .

- أنت أخذت التجربة والتدريب يا آدم . . إذن : خذ هذه التجربة وتزوَّدْ بها واخرج إلى الأرض لتباشر مهمتك فى الوجود أمراً ونهياً

(١) وذلك أن الله سبحانه قال : ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥) ﴾ [البقرة] أمر بسكنى الجنة والأكل مما فيها ، ونهى عن الأكل من شجرة حددها لهما ليحدث الاختبار .

وتحذيراً من إبليس وتحذيراً من أن تبدو لك عورة بمخالفتك لمنهج الله . . واعلم أنك إن غفلت عن شيء ثم استغفرت الله وندمت على ما فعلت . . فاعلم أن الله يقبل التوبة ويغفر الزلَّة . . ما دامت ليست في قمة الإيمان؛ لأن ذلك يعني الشرك أو رد الأمر على صاحب الأمر .

بعد ذلك . . قال الرحمن لآدم :

﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) ﴾ [البقرة]

هذا منهج التكليف . . إن اتباع هدى الله إنقاذ للإنسان من الخوف والحزن .

ويتكرر ذلك بشكل آخر في آية أخرى :

﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ (١٢٣) ﴾ [طه]

هذا تأكيد على أن الإنسان في الأرض له منهج سماوي تم تدريبه عليه لكي ينقذه من الضلال والشقاء .

لكن من يخرج عن منهج الله . . فإن الآيات الكريمة توضح طريق من

يخرج عن هذا المنهج .

﴿ ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا [1] ونحشره يوم القيامة أعمى (١٢٤) قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا (١٢٥) قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى (١٢٦) ﴾ [طه]

هذا طريق من يخرج عن منهج الله .

إذن : فـآدم حين نزل إلى الأرض . . إنما نزل بمنهج تدريبى حتى لا يؤخذ الإنسان على غِرَّة بمنهج نظرى تقوم على أساسه حركة الإنسان فى الحياة .

إن الإنسان الذى يمتلك منهج السماء يضمن السلامة والحياة فى ظل هذا المنهج ، أما من يبتعد عن هذا المنهج فإن له معيشة الضنك ، وآفة هذا العصر أن البعض يفسر حياة الضنك على أنها قلة المال والفقر .

وأنا أقول : لا .

المعيشة الضَّنْك هى أن يجد الإنسان من واقع الحياة ما لا يستطيع أن يدفعه عن نفسه بقوته سواء أكانت مالاً أو غير ذلك .

والحياة الضَّنْك تأتى لمن يُعرِض عن ذكر الله . . وكأن الله يريد من

---

(١) الضنك : الشدة والضيق من كل شىء .

عبده أن يكون ذكر الرحمن فى تفكيره.

ولذلك لم يأمن الله الإنسان على غفلته.. فجعل للمؤمن به لقاء مع الله كل يوم خمس مرات لإعلان ولائه وذكره لله، فإن غفل الإنسان ما بين ميعاد صلاة وميعاد صلاة بعدها، فإن المؤذن يعود ليذكِّر الإنسان بميعاد الله.

وإذا تساءلنا: لماذا؟

نجد الإجابة:

- إن الإنسان إذا ظل على ذكر الله صغُرتْ أمامه كل مشاكل الحياة؛ لأن الذى يأخذه الهم من مشاكل الحياة ويخاف من مواجهة هذه المشاكل، هذا الإنسان يواجه الحياة فى حدود قدرته الضعيفة.

أما الذى يواجه الحياة وهمومها بقدرة خالق الحياة فإنه قادر على تَخطِّى كل صعاب الحياة.

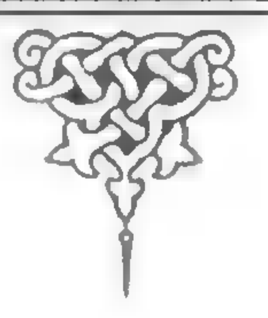
إن الذى لا يؤمن بإله قوى قادر حكيم.. يكون معذوراً حين يجزع أمام الأحداث وعندما يضعف أمام المشاكل.

ولكن الذى يذكر الله عندما يقابل العجز والمتاعب، فإنه يجد الراحة والشجاعة بالإيمان.

ولنضرب مثلاً برجل لا يملك إلا جنيهاً واحداً وضاع منه هذا الجنيه . . إن هم الرجل وغمه قد يكون فوق الاحتمال، لكن لو ضاع جنيه من رجل عنده مائة جنيه أو ألف فهو لا يهتم، لذلك فرصيد الإيمان يقوّى العزائم فلا يهن الإنسان ولا يضعف ولا ييأس من تجارب الحياة أبداً .

من فيض الرحمن   من فيض الرحمن   من فيض الرحمن
من فيض الرحمن   من فيض الرحمن   من فيض الرحمن
من فيض الرحمن   من فيض الرحمن   من فيض الرحمن
من فيض الرحمن   من فيض الرحمن   من فيض الرحمن
من فيض الرحمن   من فيض الرحمن   من فيض الرحمن
من فيض الرحمن   من فيض الرحمن   من فيض الرحمن
من فيض الرحمن   من فيض الرحمن   من فيض الرحمن

من هنا نبدأ



ليس من حق أحد أن يخبرنا عما صنعه الله إلا الله سبحانه وتعالى عن طريق من اختارهم من رسل، وخاتمهم محمد ﷺ النبى الذى حمل القرآن معجزة ومنهجاً واضحاً.

وكان أبسط بيان عن تفرُّد الله بمعرفة كيفية خلق الإنسان والكون هو أن الخالق للحياة وضع نقيضاً لها وهو الموت.

وهذا دليل واضح وجليل على صدق الله بإخباره لنا فى قضية الخلق.

والقرآن الكريم حين غطى هذه المسألة.. وحين صورها لنا هذا التصوير، فذلك هو عطاء الرحمن للإنسان بأول فكرة عن أول شيء يتعلق بوجود الإنسان.

*** إيجاد البشرية كلها من نفس واحدة:**

والأمر الثانى الذى يهتم الإنسان بمعرفته هو أن يعرف إجابة لسؤال هو:

- كيف وُجدتْ البشرية كلها من نفس واحدة؟

وهذا أمر قد يقف أمامه العقل البشرى حائراً، وهى مسألة قال فيها المضللون أشياء هى مزيد من الضلال.

يقولون: إن جنساً ارتقى عن جنس.

وكأن الله عنده أزمة أجناس.

ويأتى القرآن ليضع الأمر فى نصابه، فيقول :

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ (٣٦) ﴾ [يس]

وهذا تأكيد على أن الله الحق هو الذى خلق الكائنات كلها على سُنَّة الذكورة والأنوثة، سواء أكانت نباتاً أو حيواناً أو إنساناً أو حتى ما هو خارج علم الإنسان.

ثم يؤكد القرآن الأمر فيقول :

﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٤٩) ﴾

[الذاريات]

وهذا تأكيد آخر على أن كل شيء خلقه الحق تبارك وتعالى من زوجين : ذكر وأنثى.

إذن . .

فلو رأى الإنسان تكاثراً فى شيء فليعلم أن الأصل الأصيل لوجود هذا الشيء هو وجود زوجين هما أصل التكاثر.

والحق سبحانه وتعالى حينما تحدث عن السيد فى الكون - وهو الإنسان - قال :

﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً (١) ﴾ [النساء]

والحق تبارك وتعالى هنا يعطى بداية البداية بالنسبة للإنسان : آدم عليه السلام، ومن نفسه خلق حواء ، ومنهما نشر فى الوجود رجالاً ونساء، والوجود كله تأكيد لوحدة الأصل وتنوع الأفراد، والتقوى لله تعنى المعرفة بما خلق، وأن رقابة الله علينا هى الرحمة بنا .

فإذا جئنا إلى عصرنا الحديث الذى يقال إنه عصر ارتقاءات وعصر العقل البشرى بطموحاته فى الصعود إلى الأجواء الواسعة .

إذا جئنا لهذا العصر فإننا نقول : إننا نملك علماً اسمه «علم الإحصاء» .

وهذا العلم يهتم فيما يهتم بتعداد سكان الأرض .

وإذا نظرنا الآن فى هذا القرن الذى نعيش فيه فقد نجد أن تعداد الكون من البشر قد بلغ أربعين ألف مليون نسمة مثلاً .

فإذا انتقلنا إلى القرن الذى قبلنا .. فقد نجد أن تعداد البشرية هو عشرون ألف مليون نسمة - مثلاً .

ولو ظللنا نحسب الأمر عودة إلى الأصل القديم فإننا سنجد أن الأصل ينتهى إلى اثنين : «آدم وحواء».

إذن : فقول الله سبحانه :

﴿ ومن كُلِّ شيْءٍ خلقْنا زوْجيْنِ لعلَّكُمْ تذكَّرُون (٤٩) ﴾

[الذاريات]

هذا القول هو صدق يؤيده الإحصاء.

وإذا انتقلنا إلى شىء آخر هو أن يقول إنسانٌ هذا السؤال :

أنا أريد أن أعلم كيف يتكلم الإنسان ؟ ومن أين تعلَّم هذه اللغات؟

والإجابة عن هذا السؤال تقودنا إلى معرفة كيف غطَّى القرآن كل المسائل التى يمكن للعقل البشرى أن يخوض فيها.

إن اللسان الذى نتكلم به لا يرتبط بجنسية الإنسان. . بمعنى أن الإنسان الإنجليزى لو عاش فى بيئة عربية فسوف يتكلم العربية، ولن يقول أنا جنسيتى إنجليزية. وكذلك العربى إذا نقلته منذ طفولته إلى بيئة إنجليزية فسوف يتكلم الإنجليزية.

إذن: اللغة ترتبط بوجود الإنسان فى بيئة ما، ولكنها ليست جنسية مستمرة للسان، بل هى مظهر اجتماعي.

ما تسمعه الأذن . . يحكيه اللسان .

إن لم تسمع الأذن سوى اللغة العربية فلن يتكلم اللسان إلا اللغة العربية .

وكذلك إن لم تسمع الأذن سوى اللغة الإنجليزية فلن يتكلم اللسان إلا اللغة الإنجليزية .

وإذا سمعت الأذن اللغتين العربية والإنجليزية فسوف يتكلم اللسان اللغتين .

إذن . .

اللغة ابنة المحاكاة .

ما تسمعه أذنك يحكيه لسانك .

وما دام الأمر كذلك وعرفنا أننا تكلمنا ؛ لأننا سمعنا آباءنا يتكلمون .

فقد نتساءل أيضًا :

– كيف تكلم آباؤنا؟

وإذا بحثنا عن أصل الكلام فإننا نصل إلى آدم .

وقد نسأل :

– من أين سمع آدم؟

هنا يأتينا قول الحق الصدق المقتدر . . فيقول لنا :

﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى المَلائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ[1] (٣١) ﴾ [البقرة]

وهذا هو الصدق الإلهى المتأكد بواقع الحياة، خلق الله آدم وعلَّمه أسماء الأشياء كلها[2] وخواصها ليتمكن فى الأرض كخليفة لله فيها، وعرض الله هذه الأشياء على الملائكة وقال لهم: أخبرونى بأسماء هذه الأشياء وخواصها، لكن أحداً من الملائكة لم يعرف.

إذن: فالقرآن جاء ليغطى كل هذه المسائل:

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ﴾ [المؤمنون]

والطين هذا من بعض عناصر الأرض.. تلك العناصر التى ما زال يبحث فيها العلم، ووصل حتى الآن إلى معرفة حوالى مائة وثلاثة عشر عنصراً.

وقد قام بتحليل الطين علماء غير مسلمين.

حضارة الغرب هى التى حلَّلتْ الطين، واكتشفت أن الطين الذى

---

(١) أي: إن كنتم صادقين فى قولكم أني إن جعلت خليفتي فى الأرض من غيركم عصاني وذريته وأفسدوا وسفكوا الدماء، وإن جعلتكم فيها أطعتموني واتبعتم أمري. قاله ابن كثير في تفسيره (١/ ٧٤).

(٢) قال ابن عباس: هى هذه الأسماء التى يتعارف بها الناس: إنسان ودواب، وسماء، وأرض، وسهل، وبحر، وخيل، وحمار، وأشباه ذلك من الأمم وغيرها. ذكره ابن كثير فى تفسيره (١/ ٧٣)

ينبت فيه الزرع مكوَّن من ستة عشر عنصراً.

وحضارة الغرب هى التى حللت الإنسان، فوجدت أنه مُكوَّن من نفس عناصر الطين الذى ينبت الزرع، وهى الستة عشر عنصراً.

إذن: لا بد لنا أن نصدق قول الحق تبارك وتعالى عندما يقول أنه خلقنا من طين.

لا بد لنا أن نقول: هذا صدق عزيز مقتدر؛ لأن هذه العناصر الموجودة فى جسدى هى نفس عناصر الطين التى تبدأ بالأوكسجين والهيدروچين والكربون والنيتروچين والبوتاسيوم والصوديوم والكالسيوم واليود . . . إلى آخر هذه العناصر.

ولذلك يأتى قول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢١) ﴾ [الذاريات]

وهذا تأكيد على أن الأرض فيها الدلائل الواضحة الموصِّلة إلى اليقين، بأن الإنسان أصله من طين، وغفل البعض عن ذلك.

والمؤمن بالله ليس فى حاجة إلى دليل.. لكن الآيات جاءت لتُلجِّم غير المؤمنين بالله، وتُطمئن المؤمن أن الله لم يخدعه، وبذلك يكون الذين آمنوا مؤمنين عن صدق، وتكون الخيبة كلها لغير المؤمنين.

لذلك . .

فعندما يعطينا الله هذه الصور الواضحة عن كيفية الخلق . وكيفية التكاثر بين الزوجين ، ويُبيِّن لنا كيف تعلّمنا الكلام .

وما دام آدم هو أول إنسان .

وما دام الله قد علَّم آدم الأسماء كلها . . إذن : فلم يبق إلا المنهج .

قد نتساءل . . ما المنهج؟

إن المهمة واضحة ومحددة لكل مخلوقات الله ؛ فالقرآن الكريم يقول :

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (٥٦) ﴾ [الذاريات]

هنا تنحصر مهمة المنهج بعد الخلق فى كلمة واحدة . . هى «يعبدون» .

ما معنى «يعبدون» هذه؟

إنها تعنى إطاعة الخالق العظيم فى أمره «افعل» .

وهى أيضاً تعنى إطاعة الخالق العظيم فيما ينهى عنه بـ «لا تفعل» .

فإن استقام الإنسان على هذا المنهج تكون الصنعة قد نجحت .

وصنعة الخالق هى الإنسان . .

وكل صانع يقدم أسلوب استخدام وتشغيل وعمل ما يصنعه ، وذلك

حتى يكون ما صنعه فى أجمل وأعلى صورة.

وكل منا عندما يشترى آلة ما فإنه يسأل عن كراسة المواصفات التى تعمل بها هذه الآلة؛ لأن كل من يدفع ثمناً لآلة فإنه يريدها أن تتقن المهمة التى اشتراها من أجلها، وإذا أخطأت الآلة فإن الأمر يعود إلى سببين: إما لفساد فيها فيعود بها من اشتراها إلى من صنعها، وإما أن يكون من أدار هذه الآلة قد أخطأ فى أسلوب تشغيلها.

وفى الحالة الثانية فإن من يدير الآلة يسأل عن الخطأ فى أسلوب تشغيله للآلة.

والخالق العظيم سبحانه وضع لنا أسلوب إدارة أنفسنا.. ووضع لنا المنهج.

واختار الإنسانَ خليفةً فى الأرض.

وأرسل الأنبياء والرسل بالمنهج..

وكان محمد ﷺ النبى الخاتم صاحب منهج ومعجزة فى وقت واحد.. هذا المنهج المعجزة هو القرآن.

ومن يتبع المنهج تكن حياته من لون آخر..

حياة سعيدة.

حياة غير متضاربة مع الغير.

حياة لا تأتى فيها نعمة ما بـ «كَدَر» أو «غمّ» أو «همّ» بعدها .

لكن من يحيا بدون المنهج فحياته تختلف .

تتحول حياة من لا منهج له إلى قلق وتنافر وخصام وتمرد على الكون .

وإذا سألت : لماذا؟ فإننا نقول ما يلى :

إن صانع الحياة أراد لمن خلقه أن يؤدى مهمته على وجه الدقة . . ومن لا يؤدى مهمته على وجه الدقة فإن حياته تضطرب ؛ لأنها تسير مخالفة لمن صنع الحياة .

إذن : هذا المنهج قد جاء ليمنح الإنسان حياة جديدة .

صحيح أن الحياة العادية تبدأ من لحظة دخول الروح فى المادة ويتحرك الإنسان ، ولكن المنهج يجعل الحياة سعيدة ، ويسلم الإنسان حياة كاملة لا تفوته فيها نعمة ، ولا يفوت فيها النعمة ؛ ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤) ﴾ [العنكبوت]

وهذا معناه أن الحياة دون منهج قد تغرى الإنسان بمتاع محدود الوقت، ولكن الحياة فى ظل المنهج تؤدى إلى دار حياة حقيقية وكاملة، وهذه حقائق ثابتة لا يدركها إلا من كان له الإدراك الصحيح.

وهذه حياة حقيقية لأنك لن تترك نعيماً أو يتركك نعيم، إن هذا يحدث عندما تعيش بمنهج الله فى الأرض وتحيا به آمناً مستقراً.

إذن..

إن الله يعلِّمنا أن هناك روحاً أولى تدخل المادة، فتصير كائناً يتحرك وينفعل، ولكن هناك روحاً أخرى هى روح الإيمان تدخل على الكائن الحى لتعطى له القيم.

هناك - إذن - روحان:

روح للمادة الأولى وهى التى تمنح الكائن الحياة.

وروح القيم التى يمثلها منهج الإيمان.

والقرآن يشير إلى مثل هذه المسائل فى إشارات معبرة.

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤) ﴾

[الأنفال]

وهذا يعنى الدعوة الخالصة للذين يصدِّقون بالحق، وأذعنوا له ، أن يستجيبوا لنداء الله وأوامره، وأن يستجيبوا للرسول ﷺ فى تبليغه ما يأمر به الله، ولنعلم أن الله تعالى قائم عالم بقلوبنا وينقذنا من شهوات النفس إذا اتجهنا إلى المنهج المستقيم.

لأن الإنسان له حياتان :

الحياة الأولى الرعناء.

والحياة الثانية الأكثر ارتقاء ورفعة واكتمالاً .. تلك هى الحياة التى يريدها لنا القرآن.

ولذلك فإننا إن لم نستمع إلى منهج الله فلن نجد الحياة التى لها قيمة. وستبقى لنا روح تعطينا الحس والحركة، روح رعناء يتساوى فيها الكافر والمؤمن، لكن روح القيم عندما نتبع المنهج تقودنا إلى نشأة حياة حقيقية؛ ولذلك سَمَّى الله الروح الداخلة فى الجسم منذ أن خُلق الإنسان جنيناً فى الرحم بكلمة «روح».

ولذلك سمى الله المنهج الذى يعمل به الإنسان للوصول إلى القيم العليا «روحاً» .. فيقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢) ﴾ [الشورى]

هكذا نرى أن الله سمى المنهج القرآنى «روحاً»، وعرفنا من قبل أن روح الإنسان الأولى التى تبعث فيه الحياة والحركة اسمها «روح». ومن ذلك نعرف أن هناك «روحاً» تجعل الكائن الحى يحيا حياة القيم وهى جديرة بأن تسمى «روح الروح».

سمى الله القرآن روحاً.

سمى الله الملاك الذى نزل بالقرآن «الروح الأمين».

إذن: فالمهم فى مدارات الحياة ليست الروح الأولى التى يتحرك بها الجسد الإنساني، والتى يشترك فيها المسلم والكافر.

المهم هو أن نصل إلى روح الروح.. أى: الحياة بالمنهج لنصل إلى تحقيق القيم.

لذلك..

فالذين يأخذون من الله عطاءه فى الروح الأولى، ولا يأخذون عطاءه فى الروح الثانية.. هؤلاء لا يأخذون الحياة بمعناها الحقيقي، ولا يصلون

إلى أمن النفس أو استقرار الإيمان، أو عدم تعارض حركة إنسان مع إنسان. ولكن الذين يأخذون الروح الثانية فهؤلاء يصلون إلى حياة لا يزول فيها الإنسان عن النعيم، ولا يزول نعيم ما عن الإنسان أبداً.

ولو تخيلنا أن الإنسان قد جرد نفسه من روح القيم، روح المنهج، روح القرآن، الروح الذى نزل به الروح الأمين.. لو تخيلنا هذا الإنسان لوجدناه حائراً، لا يعرف له نظام حياة أو قدرة على التعايش مع بشر آخرين.

إن الإنسان لكى يحيا فى مجتمع لا بد له وللمجتمع من نظام يكفل الحركة، وحتى غير المؤمنين بالله يضعون قوانين تحكم تصرفات البشر بعضهم مع بعض.. ولكننا نرى أن القوانين التى يضعها البشر تتعرض للعجز وللتبديل.

ولذلك فلا بد من وجود مُقنِّن من غير البشر؛ لأن الإنسان الذى يضع القانون قد يضعه ويصممه بما يخدم هواه.

فالذى يرغب فى أن يكون رأسمالياً يقنن للرأسمالية.

والذى يرغب فى أن يكون ماركسياً يقنن للماركسية.

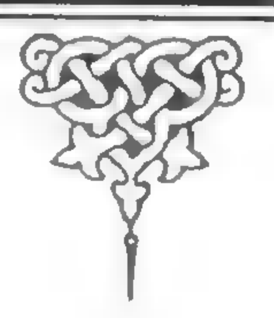
وهذا وذاك كُلٌّ منهما لايقدر على نفسه وهواه؛ فيقول: إن قضية الدين كاذبة.. قد يقولها أحد علانية، وقد يقولها آخر مستترة. وكلاهما

غير قادر إلا على الكبر وكبرياء الفكر فيقول: إن قضية الدين كاذبة، ولا يوجد هناك يوم آخر أو حساب.

لكن بعضهم يعود إلى الاطمئنان إلى منطق الحق، ويدخل إلى رحاب ربه ؛ فيُسلم ويؤمن بقية حياته.

من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن
من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن
من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن
من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن
من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن

اللذة قد تساوى الألم



اللذة دون مبدأ تساوى الألم دون حدود، و هذه هى الأسباب . كان لا بد أن يتعرف آدم وزوجه على العراقيل التى تتعارض مع مهمة الخلافة فى الأرض، ولأنها رغبة النفس فى الشهوة العاجلة وقبول النفس لنزعات الشيطان.

إن الروح التى ينفخها الله فى المادة لتتحرك وتحس ، هى غير الروح التى يعطيها الله فى منهجه القرآنى.

فالروح الأولى تعطى حياة يشترك فيها المؤمن وغير المؤمن.

والروح الثانية هى التى تعطى حياة أسعد وأخلد وأفضل، وتلك هى الحياة الحقيقية.

وقضية الخلق الأول جعل الله فيها كل عناصر الكون إلى أن تقوم الساعة؛ لأن التكليف من الله يتطلب أمرين:

أمر بـ «افعل».

وأمر بـ «لا تفعل».

ولا يمكن أن يصدر التكليف من الله تعالى دون توضيح وتفسير وتعليم، إن التكليف يتطلب أن يبصِّرنا الله بالعراقيل التى تتصادم مع التكليف سواء من رغبة النفس فى الشهوة العاجلة، أو من نزغ الشيطان للوسوسة للنفس البشرية فيما تحب من عاجل اللذة.

ولم يشأ الحق سبحانه وتعالى أن يخلق آدم عليه السلام وزوجه ويرمى بهما فى الكون دون أن يدربهما تدريباً واقعياً على مهمة الإنسان فى الكون وعلى حظه ومسئوليته بالتكليف وعلى غفلته بالشهوة .

شاء الحق سبحانه وتعالى أن يعطى آدم وزوجه التجربة الحسية المادية ، حتى يستقبلا الخلافة فى الأرض استقبالاً مدرَّباً ليكونا الزوجين اللذين يتكاثر منهما الوجود كله ، ويجعل منهما ومن نسلهما خلافة فى الأرض ، لذلك لا بد أن يكون آدم وزوجه على معرفة بالعراقيل التى تتعارض مع مهمة الخلافة فى الأرض .

* **رغبة النفس فى الشهوة العاجلة .**

* **نزغ الشيطان للوسوسة للنفس فيما تحب من عاجل اللذة .**

وإذا نظرنا إلى البشر عندما يريدون تنفيذ عملية من العمليات أو إنجاز مهمة من المهمات التى تحتاج لمهارة ما . . فإن البشر لا يأتون بالأشخاص المختارين لهذه المهمة ليزجوا بهم فى خضم الأعمال التى تحتاج لمهارة دفعة واحدة ، وإنما يأخذون الصفوة المختارة ليدربوهم على أعمال المهارة تدريباً جيداً يؤهلهم للقيام بالمهمة .

وأثناء التدريب قد يخطىء البعض فيتم التصويب ، ذلك لأن هناك فرقاً بين عملية «التربية والتدريب» وعملية «التأديب» .

فالتربية والتدريب يعنى أن تأخذ من تربيِّه وتدربه بالطرق التى توصله إلى الغاية المرجوة منه .

فإن أخطأ صحّحت له وعلّمته الصواب .

أما عملية التأديب فإن أخطأ فإنك تعاقبه .

لذلك يظل التلميذ يتلقى العلم بين يدى أساتذته طيلة العام .

إذا أخطأ التلميذ صوَّب له المعلم بالقلم الأحمر .

لكن إذا ما جاء التلميذ فى نهاية العام ليمتحن فإن المعلم لا «يصوّب» للتلميذ أخطاءه، ولكن «يحاسبه» على «الصواب» وعلى «الخطأ» ويضع له درجات يكون بها النجاح أو الرسوب .

كذلك الحق سبحانه وتعالى .

أراد الله الإنسان خليفة فى الأرض .

ومعنى «خليفة فى الأرض» أى : أن الله أمر الوجود أن ينصاع للإنسان .

تخضع الأرض للإنسان .

تخضع الحيوانات للإنسان .

يخضع الجماد للإنسان .

ولكن الإنسان الغافل يظن أن ذلك لمهارة الإنسان نفسه . . لا .

ولذلك ينبهك الله بأن إذعان كل شيء لك وكل كائن لك ليس بمهارتك الإنسانية، ولكن بمشيئة الله وبتسخير الله.

لذلك نجد العجب فى الكون.

نجد جَمَلاً يقوده طفل صغير.

ونجد ثعباناً لا يستطيع أشجع الشجعان أن يقربه.

أيهما أكبر؟

الجمل أم الثعبان؟..

هذا الجمل الكبير ذلَّله الله للإنسان.

وهذا الثعبان الضئيل تركه الله بلا تذليل للإنسان حتى ينبه الله الإنسان إلى أن قدرته محدودة بحدود، وتتعرض إلى ما تستطيعه وإلى ما لا تستطيعه.

لذلك يقول الحق فى القرآن:

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (٧١) وَذَلَّلْنَاهَا[1] لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢) ﴾

[سورة يس الآيتان ٧١، ٧٢]

(١) ذللناها: سخرناها، وجعلناها طوع إرادتكم.

إن أحداً لا يستطيع أن يذلل البرغوث الذى يقرصه وهو نائم، ومع ذلك يذلل الإنسان الفيل.

إذن: فالمسألة ليست خاضعة لقوة الإنسان أو مهارته فقط.

لكن الذى خلق الإنسان هو الذى ذلل للإنسان بقية المخلوقات.

ولو لم يذلل الله للإنسان المخلوقات لما استطاع الإنسان أن يفعل ذلك بمفرده.

إذن..

فيجب أن يظل الإنسان فى مرتبة الخلافة.

إياك - أيها الإنسان - أن تظن نفسك أصيلاً فى الكون.

ذلك أن فساد الكون يبدأ عندما يعتقد الإنسان أنه أصيل فى الكون.

لذلك يأتى بيان الحق سبحانه وتعالى للإنسان، أنه قيُّوم فلا تظن أنه خلق الكون والنواميس ثم تركها تعمل كالآلات من ورائه.. لا.. إنه قيُّوم لا تأخذه سنَة ولا نوم، وإياك أن تظن أنه زاول سلطانه وقدرته فى الكون مرة واحدةً. لا تتخيل أنه سبحانه خلق القوانين ثم ترك القوانين لتعمل وحدها فى الكون.

لا..

لا تزال القوانين بيده سبحانه.

الناموس كله بيده.

الكون كله بيده.

وإذا خدعتك الرتابة[1] والنظام اللذان تراهما فى الكون فتذكَّر أنه جعل لكل شىء سبباً.

فهو سبحانه خلق الأسباب والمسببات.

ولكن بين الحين والحين يخرق الأسباب والمسببات، ليدلل لك على أن القوانين لم تخرج من يده سبحانه لتفعل هى.

وفى ذلك رد على هؤلاء الفلاسفة الذين قالوا: «إن الله خلق الأشياء فعلاً، وترك القوانين تعمل وظَلَّ اللهُ بلا عمل».

لا.

لقد خلق الله القوانين. وقال الله للقوانين «اعملى». والله من وراء القوانين قد يُعطِّلها حين يشاء.

لذلك نجد أن المعجزات التى جاءت على أيدى الرسل عليهم السلام هى تذكير بهذه القضية، فلو أن القوانين هى التى تتحكّم وحدها لما جاءت معجزاتٌ على الإطلاق، لكن شاء الله أن يمنح الرسل معجزات يخرق بها القوانين حتى يبين لنا أن القوانين لا تزال بيده سبحانه. هو

---

(١) الرتابة: هى سير الشيء على نظام واحد لا يتخلف.

يخلقها وهو يعطلها.

فأنت أيها الإنسان تستطيع أن تُطلق القانون، ولكنك حين تطلقه لا تستطيع أن تتحكم فيه، لكن الله يستطَيع أن يخلق القانون وأن يتحكم فيه فيحكم عليه بالتوقف.

ولنضرب مثالاً..

يستطيع الإنسان أن يمسك بندقية ويجيد التصويب والهدف واضح أمامه.

القانون يبدأ من لحظة وضع الإنسان يده على الزناد، فتنطلق الرصاصة فتصيب الهدف.

لذلك لا يمكن أن يطلق الإنسان الرصاص، وهو يركِّز على الهدف دون أن يصيب الهدف.

لكن الله قد يتدخل.. قد يسمح للرصاصة أن تنطلق ولا تصيب الهدف.

هذا هو الفارق.

لنتأمل قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام والنار.

هل كان الله سبحانه يريد فقط أن ينجو إبراهيم من النار؟

لا.

لأن المسألة لو كانت نجاة سيدنا إبراهيم فقط لكان قد جعل إبراهيم يفلت من بين يدى قومه، أو يجعلهم لا يستطيعون الإمساك به .

وكان يستطيع سبحانه أن يتركهم يوقدون النار ثم يرسل المطر فتنطفىء .

لكن الله أراد أن يتمكنوا من إبراهيم .

وأن تظل النار ناراً .

وأن يقذفوا بإبراهيم فى النار .

ويأمر الله سبحانه النار بقوله :

﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ (٧٠) ﴾

[سورة الأنبياء الآيتان ٦٩ ، ٧٠]

هذا هو كيد الخصوم لله . ورد الله عليه .

فلو كان الله قد منعهم من الإمساك به لقالوا : «آه لو كنا أمسكناه وقبضنا عليه . . لكنا فعلنا به كذا وكذا . . »

ولو كانت الأمطار هى التى أطفأت النار لقالوا «آه لو لم تأت الأمطار لكانت النار ستحوله إلى فحم» .

ولكن عندما قال الله للنار : ﴿ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾

[الأنبياء : ٦٩]

فهذا معناه أن معجزة تحققت ، النار لم تعد لها فى حالة سيدنا إبراهيم وظيفة الإحراق . .

لقد أتى الله بالمعجزة ليعطى المثل على إطلاق قدرته فى الكون ، وليؤكد أن القوانين التى وضعها الله فى الأشياء هى أيضاً بيده ، وأنه بعد أن خلق هذه القوانين فإن سيطرته عليها كاملة .

إنه قيوم ودائم القدرة .

مثال آخر :

قوم فرعون عندما جاءوا وراء موسى عليه السلام وأهله حتى يدركوهم .

عندما رأى أصحاب موسى قوم فرعون أصابهم الخوف .

﴿ فَلَمَّا تَرَاءَى[1] الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) ﴾ [سورة الشعراء]

قال قوم موسى : «إنا لمدركون» بمنطق الواقع ، وتوقعوا الهلاك على

(١) تراءى الجمعان : أى : رأى كل من الفريقين صاحبه .

يد جيش فرعون .

فماذا قال موسى؟

﴿ قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) ﴾ [سورة الشعراء]

قال موسى : «كلا» ولو كان قد اكتفى بذلك لقال منطق الواقع . . إن هذا جنون مطبق [١] ؛ لأن جيش فرعون من الخلف والبحر من الأمام .

لكن موسى قال : ﴿ قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) ﴾ وهنا عرفنا أن القانون بيد الله .

ولذلك كانت معجزة شق البحر :

﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ [٢] الْعَظِيمِ (٦٣) وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ [٣] الآخَرِينَ (٦٤) وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ (٦٥) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ (٦٦) ﴾ [سورة الشعراء]

وكانت معجزة شق البحر عجيبة ، إنها تتعدى قوانين البحر ، حيث إن البحر من ماء ، والماء سائل ، فكيف ينقسم الماء اثنى عشر طريقاً . . كل طريق يتجمد على جانبيه الماء كأنه جبل عظيم ، و كيف تنتقل سيولة الماء

(١) أي : جنون مستحكم شديد .
(٢) الطود العظيم : الجبل الضخم .
(٣) أزلفنا ثم الآخرين : أي : قربنا من البحر فرعون وجنوده وأدنيناهم إليه .

إلى صلابة الجبل؟

ثم يدخل موسى إلى البحر هو وقومه ويخرج هو ومعه كل قومه، ثم يحاول موسى أن يضرب البحر بالعصا مرة أخرى حتى يغلقه فى وجه فرعون، فيعطل الله عمل العصا كمعجزة ويظل البحر كما هو، به طرق واضحة تحفها جبال، وذلك حتى يزداد غرور فرعون ويدخل خلف موسى، وبعد أن ينجو موسى وأصحابه يعود البحر كما كان؛ مجرد مياه.. فيغرق فرعون وجنوده.

وتكون قدرة الله أن أنقذ موسى وأهله، وأهلك فرعون وجنوده بالشىء الواحد.. البحر.

إنها القدرة المطلقة فى نواميس الكون.

قدرة طليقة، ولا حدود لها.

ولنضرب مثالاً آخر:

نحن عندما نستقبل قضية الخلق فى القرآن. نجد أن الله خلق آدم، وخلق له زوجته من نفسه، وخلقنا نحن من نسل آدم.

وخلق عيسى ابن مريم من بطن امرأة لا رجل لها، هنا نجد الخلق على أربعة ألوان:

* خلق إنساناً لا أب له ولا أم: آدم.

* خلق إنساناً من أب فقط ولا أم: حواء.

* خلق إنساناً من أم فقط ولا أب: المسيح.

* خلق إنساناً من أب و أم: وهو يمثل بقية البشر.

وذلك حتى نعرف أن السبب لا يملك الله..

ولكن الله هو الذى يملك كل الأسباب.

وحتى يؤكد الله لنا ذلك بشكل أكثر فاعلية. فقد يوجد الأب والأم، والعناصر كلها مستوفاة، ولكن لا أبناء لهم.

﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٥٠) ﴾ [سورة الشورى]

وهذا هو إطلاق القدرة فى الأسباب.

وذلك حتى لا تصيب الناس الفتنة بالأسباب وحدها دون تذكر قدرة الله.

أذكر أنى التقيت مع مستشرق فرنسى اسمه «مليو» فى مدينة الزقازيق منذ سنوات بعيدة وكان يقول:

- إن إيمانكم بالقضاء والقدر وأن كل شىء بيد الله هو الذى جعلكم

متأخرين ومتخلفين.

ومرَّت سنوات، ويشاء الله أن ألتقى بهذا المستشرق منذ شهور فى الأردن. وجاءت سيرة الثروات العربية فى الأمة العربية المتخلفة. والتى شاء الله أن يذل لها المتقدمين.. بما منح الله العرب.. بما منحهم من تحت أرجلهم فى الأرض، فقلت لهذا المستشرق:

- إن ثروة العرب يمكنها أن تجعلك تفهم أن الله حين جعل الحركة سبباً لاتساع الرزق.. جعل أيضاً اتساع الرزق عند غير المتحرك؛ وذلك ليؤمن الناس بإطلاق قدرة الله.

ولكن العرب أيضاً عليهم أن يعرفوا أن الثروة اختبار من الله.

﴿ لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (٢٣) ﴾ [سورة الحديد]

وهذا معناه أن الله القيوم يخلق الأسباب والمسببات.

ويخلق الأسباب دون المسببات.

ويخلق المسببات دون الأسباب.

وذلك حتى لا تنقطع صلة الخلق بالحق سبحانه وتعالى، ويظلون مرتبطين به دائماً.

من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن
من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن
من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن
من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن



آدم المظلوم

يخطىء البشر فى تخيل أن آدم دخل جنة الآخرة أولاً قبل أن ينزل إلى الأرض، ولكن القصة تبدأ من جنة التدريب على مهمة الحياة فى الأرض.

كانت الجنة التى أسكنها الله آدم وزوجه هى التدريب لمسيرة البشرية، وهو قضية التعليم الأول للإنسانية كيف تعيش بين النقيضين؟

إذا كان المجتمع الإنسانى يريد أن يدرِّب إنساناً ما على حرفة ما أو مهارة ما.. فإن هذا المجتمع لا يلقى بالنظريات الخاصة بالمهارة فى أذن الإنسان المراد تدريبه.. ثم بعد ذلك يطلب منه أن ينفذ هذه النظريات فى الواقع.

لا..

إن التدريب فى المجتمع البشرى يقضى بأن يأخذ المربِّى من يريد تربيته ليدربه عملياً على المهمة التى يريدها منه، فإن أخطأ من يتم تدريبه فى فترة التدريب فإن أحداً لا يعاقبه، ولكن يوجهه المعلم إلى الصواب فقط.

وضربنا مثلاً بالمعلِّم الذى يعلم تلاميذه طيلة العام ويشرح لهم المسائل العلمية.. فإن أخطأ تلميذ ما.. فإن الأستاذ يصحح له الخطأ ويكتب له الصواب.

لكن حين تأتى نهاية العام ويترتب على الأمر نجاح أو رسوب.. فإن

المعلم يصحح ورق الإجابة لا بغرض تصحيح الأخطاء، ولكن بغرض تقدير الدرجات التى تستحقها إجابة التلميذ ويترتب على ذلك النجاح أو الرسوب.

وهكذا كانت قضية التدريب الأول لآدم ولزوجه.

ويظن كثير من الناس أن آدم بمعصيته لربه أخرج نفسه وأخرجنا معه من الجنة، وكأن آدم هو الذى أخرجنا بفعلته لنكدح ونشقى، وكان من الممكن أن نظل فى الجنة إلى الأبد.

وهذا النوع من الناس يظلمون أباهم آدم.

لأن هذه القضية علينا أن نفهمها على أساس الإعلان الأول عن آدم.
والإعلان الأول عن آدم لم يقل: إنى خلقت آدم للجنة ثم عصا ربه فنزل إلى الأرض..

لا..

إن الإعلان الأول عن آدم هو قول الله:

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ (٣٠) ﴾ [سورة البقرة]

كانت البداية إذن هى اختيار آدم لمهمة فى الأرض.

هذه المهمة هى خلافة آدم فى الأرض، وليباشر آدم مهمة الاستخلاف فيما سخَّره الله له.

ولكن الله لرحمته بالخلق.. لم يشأ أن يزجّ بآدم فى تلك المهمة التى تعطيه سيطرة على كل أجناس الوجود فيسخّرها كما يحب، وربما أعطاه ذلك التسخير لوناً من الاستعلاء فى ذاته فيظن أنه هو الذى فعل بذاته، ولا يذكر الفاعل الذى فعل له ذلك كله..

﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝٦ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ۝٧ ﴾

[سورة العلق]

إن الإنسان عندما يرى نفسه فى الثراء والسيطرة على الكون قد يظن نفسه - بنوع من الاستكبار - أنه قد فعل كل ذلك بنفسه، وينسى خالقه الذى استخلفه فى الأرض.

ولهذا قد نجد الإنسان أبعد ما يكون عن خالقه حين يمتلك أسباب الدنيا من صحة ورزق وأمن واطمئنان وسلامة، ولكن إذا مس الإنسان شيء من الضرر ورأى أن ما يملكه لا يسعفه فى إزالة الضرر.. عند ذلك لا يجد إلا أن يذكر ربه ويفزع إلى خالقه ليضمن لنفسه الأمل.

﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢) ﴾ [سورة يونس]

إذن: فقضية الاستخلاف فى الأرض والتى يجد فيها الإنسان أن كل شىء مسخَّر له . . قد تجعل الإنسان يسير إلى الطغيان.

فما الذى يلفت الإنسان إلى ربه؟

إن الإنسان قد يجد فى قوة سيطرته على الأشياء فى الكون ما يجعله يتمادى فى الغرور.

ولهذا يجب أن ندرك سر المحن والكوارث فى الكون . . ويجب أن ندرك سر المصائب بالنسبة للإنسان.

المحنة أو الكارثة أو المصيبة هى التى تنفض عن الإنسان أسباب الغرور، وتجعله يلتفت إلى وضعه كخليفة لله فى الأرض، وتعيد له الفهم والإحساس بقدرة صانع كل أسباب القوة، وهو الله سبحانه وتعالى.

قد يظن الناس أن المصائب إنما جاءت للنيل منهم، ولا يعرفون أن المحن والمصائب هى التى تنفض عن الإنسان غبار الغرور بأسباب قوته، وتجعل الإنسان مضطراً دائماً إلى أن يلجأ إلى الحق سبحانه وتعالى الذى

خلق كل أسباب قوة الإنسان، وخلق أيضاً النقيض لهذه القوة، وهو الضعف أمام الكوارث والمصائب والمحن.

إذن: فالكوارث والمصائب والمحن جاءت لتعدِّل ما اعوجَّ من سلوك الإنسان وتذكّره بواجب العبودية لله.

فمن يطغى بالنعمة يلفته الله بواسطة النقمة.

إذن: فاللفتة التى تحدث هى لحساب الإنسان، وليست على حساب الإنسان.

ولذلك كان خصوم الإسلام والمسلمين يفرحون حين يرون مصيبة تقع بأعدائهم المسلمين وتنزل بهم.

ويرد الله على حمق أعداء المسلمين، ويزيد الله من رشد المؤمنين بأن يقول:

﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (٥١)﴾ [سورة التوبة]

هذا أمر واضح للمؤمنين بأن ما يصيبهم ليس عليهم، ولكن لصالحهم تماماً كقانون البنوك فيه «حساب للإنسان» و«حساب على الإنسان».

فهل المصيبة للمؤمن أم عليه؟

المصيبة للإنسان وليست عليه؛ لأنها تلفته إلى ربه، ولو لم تجيء المصيبة ربما ظل الإنسان سادراً[1] فى طغيانه، وحين يظل الإنسان سادراً فى الطغيان فهو ينسى أنه خليفة لله فى الأرض ويعتبر نفسه أصيلاً فى الكون، وإذا اعتبر الإنسان نفسه أصيلاً فى الكون فقد جاءت الخيبة كلها عليه.

إذن: فحين يلفت الله الإنسان بمصيبة تصيب الإنسان، فذلك لأن الله يريد تصويب حركة الإنسان فى الحياة، وهذا لحساب الإنسان ولصالحه.

وحين أراد الله أن يدرِّب آدم على مهمة الخلافة فى الأرض.. فهذا معناه أن يظل آدم متذكّراً وعارفاً لنفسه كخليفة فى الأرض، وليس أصيلاً يظن نفسه صانع الكون.

ويريد الله أن يذكِّر آدم بعقبات تقف فى طريق الطاعة لله، وهى:

*** هوى النفس الحمقاء التى تتطلب عاجل الشهوة، وتنسى عاجل العقوبة.**

ثم العقبة الثانية وهى:

*** الشيطان الذى يزيِّن للإنسان أن يعصى ربه.**

قضية العصيان فى الكون كله إذن تتمثل فى أمرين هما:

---

(١) السادر: الذى لا يهتم لشيء، ولا يبالى ما صنع.

* شهوة النفس

* أو الاستجابة إلى إغراء الشيطان.

ويستطيع الإنسان المؤمن اللبق أن يفهم.

- هل المعصية التى يعصى بها ربه من عمل نفسه أم من عمل الشيطان؟

وذلك حتى لا نظلم الشيطان فى كل شىء، ونظل نردد: «الشيطان.. الشيطان».

نقول لمثل ذلك الإنسان:

لا.. قبل أن تستعيذ بالله من الشيطان، فإن الله يأمرك أن تستكمل السيطرة على نفسك.. بحيث لا تتحرك شهوتك إلى مخالفة ربك..

فإذا ما استكملت السيطرة على نفسك فاستعذ بالله من العنصر الخارج عنك، وهو الشيطان.

﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ [1] مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٦) ﴾ [سورة فصلت]

أى: أنه عندما يوسوس لك الشيطان بما يصرفك عما أمرك الله به فتحصَّنْ منه بالله، والله هو المحيط علماً بكل شىء.

(١) نزغ الشيطان: وساوسه ونخسه فى القلب بما يسوِّل للإنسان من المعاصي. [اللسان مادة: نزغ].

لكن قبل أن تقول : الشيطان . . قُلْ لنفسك :

- أهذا أمر أراده الله وحدده بـ «افعل» أو « لا تفعل» ، وذلك حتى لا تُدخل الشيطان عدواً في غير قضية عداوة .

ولذلك يقول المحققون : إن الإنسان يستطيع أن يعرف ؛ أهذه المعصية من نفسه أم من الشيطان؟

فإن كانت المعصية التى يعصى بها الإنسان ربَّه سبحانه وتعالى تلحّ على الإنسان بذاتها . وكلما حاول الإنسان أن يصرف نفسه عن هذه المعصية فإن نفسه تحدّثه بها . . فعلى هذا الإنسان أن يعلم أن هذه المعصية من نوع «شهوة النفس» . . لأن النفس تحب الإنسان عاصياً من لون خاص . تريد النفس أن تحقق لنفسها تلك الأخطاء والمعاصى . . كالنظر إلى المحارم مثلاً . . يحاول الإنسان أن يأمر نفسه بالانصراف عن ذلك ولكن النفس تلح عليه . . هذه شهوة من لون خاص ، وخطأ من لون خاص ، من شهوة النفس .

إن النفس ترضى بالمعصية الجزئية التى إن لم يقاومها الإنسان سيطرت عليه .

أما الشيطان فله أمر آخر . إن الشيطان يريد الإنسان عاصياً دائماً . . إنه لا يرضى بالمعصية الجزئية . . إنما يطلب العصيان الدائم . فإن امتنع الإنسان على الشيطان فى معصية ما ، فإن الشيطان يحاول الدخول إلى

الإنسان من باب معصية أخرى [1] .

ويتتابع هجوم الشيطان فإما أن تكون قوياً ، وإما أن تضعف تماماً، فالذى شهوته أن يسرق وحاول الامتناع وصرف النفس عن السرقة . . هذا الإنسان إذا ما قاوم ذلك فإنه ينتصر . .

أما إذا استسلم إلى السرقة وأتبعها بالزنا، وأتبعه بالإلحاد، وأتبعه بالغرق فى كل ما لا يرضى الله دون ضمير . . فهذا هو المستسلم للشيطان .

وإذا اكتشف الشيطان قوة إنسان فى الامتناع عن خطأ ما فإنه يبحث عن ثغرة الضعف لينال من الإنسان، ويجعله عاصياً مطلق المعصية .

وحينئذ يستطيع الإنسان أن يحدد بشكل واضح . . إذا كانت المعصية التى يقف عندها ويحاول أن يصرف النظر عنها، ثم ترجع النفس بالإلحاح . . فهذا كما قلنا هو «شهوة النفس» .

أما إذا كانت المعصية تتحول وتتبدل . . وتصبح طريقاً إلى معصية ثانية وثالثة ورابعة . . فليعلم الإنسان أن تلك المعاصى من الشيطان؛ لأن الشيطان يريد الإنسان عاصياً بشكل مطلق، وبأى حال من الأحوال .

(١) عن سبرة بن أبى فاكه سمعت رسول الله ﷺ قال : إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه ، فقعد له بطريق الإسلام فقال : أتسلم وتذر دينك ودين آبائك، قال : فعصاه وأسلم ، قال : وقعد له بطريق الهجرة فقال : أتهاجر وتذر أرضك وسماءك، وإنما مثل المهاجر كالفرس فى الطول فعصاه وهاجر ، ثم قعد له بطريق الجهاد فقال : أتقاتل فتقتل فتنكح المرأة ويقسم المال ، قال : فعصاه وجاهد . . أخرجه أحمد فى مسنده (٣/ ٤٨٣) والنسائى فى سننه (٦/ ٢١)

إذن: فقضية التدريب على مهمة الإنسان فى الحياة يجب أن تتناول هذه المسألة.. فعندما اختار الله آدم لمهمة الخلافة فى الأرض، فعلى الإنسان أن يفهم الرسالة السماوية بالشكل الآتى: كأن الله سبحانه يريد أن يقول لآدم:

- يا آدم إنى جعلتك فى الأرض خليفة. والخلافة تتطلب أمراً. هذا الأمر يتلخص فى أنه يجب أن تتنبه جيداً إلى أن لك عدواً.. هذا العدو إما أنت نفسك، وإما الشيطان، وأنا سأجعلك تعيش هذه التجربة نفسها فى هذه البقعة المسماة بالجنة.

ولا بد لنا أن نتروَّى ونحن نفهم معنى كلمة «الجنة» التى تدرب فيها آدم على مهمة الخلافة فى الأرض.

إن الذى يريد أن يدرب إنساناً على مهمة ما.. فإنه يحدد مكان التدريب المناسب لهذه المهمة.

مثال ذلك:

أننا إذا أردنا أن ندرب فريقاً للكرة أو للسباحة.. فماذا نصنع معه؟

إننا نأخذه إلى مكان يستطيع فيه أن يتفرّغ لهذا التدريب، ونهيّئ له فى هذا المكان كل أسباب الحياة من مأكل ومشرب وملعب ومبيت، ونحاول أن نجعل حياة الإنسان كاملة من كل الأوجه، ولا نكلّفه السعى وراء أسباب الحياة.. ثم ندربه على المهمة التى نريدها له.

وهكذا فعل الله مع آدم.

أخذ الله آدم وزوجه إلى الجنة.

ولم تكن هذه «الجنة» التى أخذ الله إليها آدم وزوجه هى «جنة الآخرة» التى بها الثواب والعقاب، بل كانت «مكاناً» يستر آدم وزوجه ليتعلما فيها ويتلقيا التدريب على الخلافة فى الأرض.

وقد يسأل سائل : إذن ما هى الجنة التى ذهب إليها آدم فى بدء الخلق؟

إن هذا يعنى أن نشرح معنى كلمة "الجنة"

إن الله أطلق كلمة «الجنة» على البقعة التى يوجد فيها من الزرع ما يستر الإنسان.

و«الجنة» معناها "ساتر"، فإذا دخل فيها إنسان سترته بأغصانها وأشجارها، أو سترت الإنسان عن الوجود؛ لأن فيها كل ما يغنى الإنسان.

وحتى نؤكد هذا المعنى فعلينا أن ننظر إلى الآيات الكريمة التى تقول:

﴿ واضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا (٣٢) كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَرًا (٣٣) وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ

وهو يحاوره أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً (٣٤) ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبداً (٣٥) وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيراً منها منقلباً [١] (٣٦) قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلاً (٣٧) لكنا هو الله ربي ولا أشرك بربي أحداً (٣٨) ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله إن ترن أنا أقل منك مالاً وولداً (٣٩) فعسى ربي أن يؤتيني خيراً من جنتك ويرسل عليها حسباناً [٢] من السماء فتصبح صعيداً زلقاً [٣] (٤٠) أو يصبح ماؤها غوراً [٤] فلن تستطيع له طلباً (٤١) ﴾ [سورة الكهف]

هنا يضرب الله المثل برجلين:

أحدهما: له حديقتان من أعناب ونخيل وبينهما نهر، وأفسده ما يملك، فظن أنه ليس خليفة فى الأرض، إنما هو صانع ومالك الحديقتين وكفر بالله، وقال إنه من أصحاب النعيم، سواء فى الدنيا أو الآخرة.

---

(١) منقلباً: مرجعاً.
(٢) حسباناً: عذاباً من السماء، وهو مطر عظيم يقلع الأشجار.
(٣) الصعيد الزلق: التراب الأملس الذى لا تثبت فيه قدم، كالأرض التى لا تنبت شيئاً.
(٤) غوراً: غائراً فى الأرض.

لكن الرجل الآخر كان مؤمناً بالله، يعرف أنه خليفة فى الأرض، ويعى وجود الله وقدرته ومشيئته سبحانه : يعطى من يشاء، ويمنع من يشاء، ويرسل الخير اختباراً. . ويرسل المنع اختباراً.

ونزلت الصاعقة على من لم يع مقدرة الله ويؤمن بها.

استخدم الله هنا كلمة "الجنة" في وصف مكان يملكه فرد؛ ولهذا فإن علينا أن نفهم أن «الجنة» التى أوجد الله آدم بها هو وزوجه هى مكان للتدريب على مهمة الخلافة.

ويمكننا أن نعرف أن كلمة الجنة كما تطلق على دار الثواب فى الآخرة. . فهى تطلق أيضاً على المكان الذى فيه كل حاجات الحياة.

وإذا سألنا : أية مهمة أراد الله أن يدرِّب آدم وزوجه عليها؟

فإن الإجابة هى أن الله أراد أن يدرب آدم وزوجه على مناط فكرة الاختيار فى الإنسان. .

لأن فكرة الاختيار هى سر العصيان أو الطاعة.

ولأنه لو لم يكن فى الإنسان اختيار بين «أن يفعل» أو «لا يفعل». . لما كان هناك داع لمهمة تكليف الإنسان بالخلافة فى الأرض، وبأن «يفعل» ما يأمره الله، وأن «لا يفعل» ما ينهى عنه الله.

لأن الله أراد أن يجعل الإنسان صالحاً لأن «يفعل»، وصالحاً

«ألاّ يفعل».

هنا يمتلك الإنسان إرادة «الفعل» و«عدم الفعل».

هنا لا يكون الإنسان مرغماً.. لأن الإرغام لا تكليف فيه.

ولكن «التكليف» منشؤه وجوب الاختيار.

للإنسان القدرة أن يفعل.

وللإنسان القدرة ألاّ يفعل.

لذلك فـ«المكره» يسقط عنه التكليف. مثل «المجنون» أو «ناقص العقل» أو «غير البالغ». هنا يسقط التكليف. ولا تكليف إلا بالبلوغ أو نضج العقل أو ذهاب الجنون مثلاً.

لأن قانون الاختيار هنا غير موجود.

كل هذا يدل على أن مناط التكليف بـ«افعل» أو «لا تفعل» لا بد أن يكون فى أمور اختيارية؛ لأن الأمور غير الاختيارية لا تكليف فيها؛ ذلك لأن الإنسان لا دخل له فيها.

ولذلك إذا نظر الإنسان إلى الكون فسيجد أن أى فساد فى الكون ليس فى الأمور التى سخرها الله للإنسان والتى نشأت بغير اختيار.. ولكن الفساد ينشأ فى الكون من مخالفة التوجيه فى الأمر الاختيارى.

والأمر الاختيارى للإنسان فقط.

لذلك فكل فساد فى الكون لا ينشأ من المخلوقات الأخرى .

لا ينشأ الفساد من الجماد .

ولا ينشأ الفساد من الحيوان .

ولكن الفساد ينشأ من الإنسان .

وإذا سألنا :

- من أى منطقة فى الإنسان ينشأ الفساد ؟ . . هل من الأمور التى هو مقهور عليها ؟ . . أم من الأمور التى هو مختار فيها؟

والإجابة هى أن الفساد ينشأ من الأمور التى يختار فيها الإنسان .

أما الأمور التى لا اختيار فيها فلا فساد بسببها فى الكون .

إننا إذا نظرنا إلى الكون لوجدنا أن المتاعب تنشأ فى القُوت مثلاً ؛ لأن الإنسان له عمل فى إنتاج القُوت . . قد يزرع ما يكفيه وقد لا يزرع . وقد نجد المتاعب تنشأ فى الماء مثلاً . . لأن الإنسان له عمل فى المياه كأسلوب تنقيتها وتوزيعها .

لكن هل يوجد فساد فى الهواء مثلاً؟

هل اشتكى أحد الناس من عدم وجود الهواء؟

لا . .

لماذا؟

لأنه لا دخل للإنسان فى شىء من الهواء .

إذن : فالفساد فى الكون ينشأ من منطقة الاختيار فى الإنسان ، والفساد لا يحدث إلا إذا خالف من يختار توجيه الذى أوجب عليه الاختيار .

من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن
من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن
من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن
من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن

حدود السماء هى كرامة الإنسان

الله يريد من الإنسان ألا يقرب من مواقع الخطأ، وفى هذا حماية للإنسان من ارتكاب الخطأ.

جنة التدريب تختلف عن جنة الآخرة لأن جنة الآخرة هى التى فيها الجزاء..

وجنة الجزاء لا يدخلها الإنسان إلا بعد حساب يترتب عليه الثواب.

ولأن الجنة التى هى دار الثواب لا تكليف فيها.

ولأن الجنة التى هى دار الثواب لا يمكن أن ينزغ فيها الشيطان.

وقلنا:

إن الجنة التى تم فيها تدريب آدم وزوجه على مهمة الخلافة فى الأرض هى مكان به استكفاء بكل مقومات الحياة.

وقلنا:

إن مهمة الإنسان فى الأرض كانت تقتضى الاختيار.

والاختيار يقتضى التوجيه.

والتوجيه ينحصر فى «افعل» و«لا تفعل».

وكل مناهج الرسل الذين أرسلهم الله إلى الخلق لا تخرج عن

التكليف الواضح بـ «افعل» و «لا تفعل».

لذلك تم تدريب آدم على مهمة «افعل»، وعلى مهمة «لا تفعل».

تم تدريب آدم على مهمة «افعل» عندما صدر الأمر الإلهى بأن يأكل من الشجر ما شاء هو وزوجه.

وتم تدريب آدم على مهمة «لا تفعل» عندما صدر الأمر الإلهى بألاَّ يقربا هذه الشجرة. [1]

فالرمز إلى حرية الفعل هو الأكل من كل ما فى الجنة.

والرمز إلى حدود هذه الحرية و«لا تفعل» هى ﴿ **وَلا تَقْرَبا هَذِهِ الشَّجرة فتكُونا من الظَّالمين** ﴾ [البقرة: ٣٥]

ومجال الاختيار مفتوح بأن يأكل الإنسان ما أذن الله أن يأكله، وأن يمتنع عن الأكل من تلك الشجرة.

ولننظر إلى دقة الأداء التكليفى عندما يقول الحق: ﴿**لا تَقْرَبا**﴾ موجهاً الحديث لآدم ولزوجه.

إن دقة الأداء التكليفى تظهر بوضوح عندما يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿**لا تقْربا**﴾ إنه لم يقل: «لا تأكلا».

(١) وهذا قد قصه الحق سبحانه فى القرآن فقال: ﴿ وقُلنا يا آدمُ اسكُن أنت وزوجُك الجنَّة وكُلا منها رغدا حيثُ شئتما ولا تقربا هذه الشَّجرة فتكُونا من الظَّالمين (٣٥) ﴾ [البقرة: ٣٥]

فكأن أمور المعاصى كلها لا يطلب الله منا ألا نفعلها فحسب ، ولكن الله يريد أن يجنبنا إلحاح شهواتنا على فعل المعصية ؛ لذلك يبعدنا حتى عن مجال الاقتراب من المعصية .

فمثلاً . .

قد يوجد مكان فيه خمر ، والله لا ينهى الإنسان فقط عن شرب الخمر ، وإلا لكان معنى ذلك أن يوجد الإنسان فى خمارة ويكتفى الإنسان بألا يشرب .

لكن أليس وجود الإنسان فى مكان احتساء الخمر هو إثارة للإلحاح على نفس الإنسان ، فتلين هذه النفس وتفعل المعصية؟

إن الله يريد أن يمنع الإنســان من هذا . . فتقول الأوامر السماوية : لا تقرب أماكن احتساء الخمور .

هكذا نفهم الأمر السماوى بـ «لا تقرب كذا» . وليس معنى ذلك ألا يكتفى الإنسان بعدم شرب الخمر ، ولكن أيضاً ألاّ يوجد فى مجال قد يغريه بأن يفعل ما يعصى به الله [1] .

إذن : فالذى خلق النفس الإنسانية حماها من محاولات المعصية بالنسبة للإنسان .

---

(١) عن أنس بن مالك قال : «لعن رسول الله ﷺ فى الخمر عشرة : عاصرها ومعتصرها ، وشاربها ، وحاملها ، والمحمولة إليه ، وساقيها ، وبائعها ، وآكل ثمنها والمشترى لها والمشتراة له» أخرجه ابن ماجه فى سننه (٣٣٨١) والترمذى (١٢٩٥) وقال : حديث غريب .

ولذلك نجد أسلوب القرآن يقول مرة :

﴿ ولا تُباشِرُوهُنَّ وأَنتُمْ عاكِفُونَ[1] فِي الْمَساجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوها ﴾ [من الآية ١٨٧ من سورة البقرة]

ومرة أخرى يقول القرآن :

﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوها ﴾ [من الآية ٢٢٩ من سورة البقرة]

والأسلوبان يدلان على أن قائل الأسلوبين حكيم، يضع اللفظ حيث يعبر تماماً عن المعنى.

فإذا كان الأمر متعلقاً بمسألة «افعل كذا ولا تتعد هذا الفعل» فهذه هى حدود أوامر واضحة فيأتى الأمر السماوى :

﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوها ﴾ [البقرة : ٢٢٩]

أما إن كان الأمر متعلقاً بمسألة ينهانا عنها الله، فإن الأمر السماوى يقول : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوها ﴾ . فالأمر بالنهى لا يقف عند «لا تفعل» كذا. ولكن الأمر بالنهى يتسع ليحمى الإنسان بعدم الاقتراب من مجال هذا الفعل الذى يجب على الإنسان أن يبتعد عنه.

ويتضح الأمر بصورة حاسمة فى هذا المثال : يقول الله سبحانه

(١) المباشرة : جماع المرأة. والعكوف فى المساجد : ملازمتها للعبادة وعدم الخروج منها إلا لحاجة الإنسان. وقد كان الواحد منهم إذا اعتكف وخرج لبيته لقضاء الحاجة باشر امرأته فنهوا عن هذا.

للمعتكفين بالمساجد فى رمضان ما يلى:

﴿ ولا تُباشِرُوهُنَّ وأنتُمْ عاكِفُونَ في الْمَساجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوها ﴾ [من الآية ١٨٧ من سورة البقرة]

فمن الجائز أن تأتى امرأة للعاكف بالمسجد فتتحدث معه ويتحدث معها ويهمس صوت الإغراء؛ فيقول الرحمن: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فلا تقْرَبُوها ﴾..

لذلك فالأمر هنا أن نمنع الملابسات التى تغرى بهذه العملية.

وفهم الأوامر والنواهى بهذا الأسلوب يحل لنا إشكالاً وقع فيه كثير من الذين يعتبرون أنفسهم مفكرين.. يستقبلون أوامر الله بأسلوب فى الفكر يقود إلى الطغيان، ويحاولون أن يحللوا لأنفسهم أشياء محرمة، وذلك حتى لا يقال: إنهم عاصون.

يقول الواحد منهم: إن الخمر لم تأت فيها آيات للتحريم وقصارى ما جاء فيها هو قول الله: ﴿ إنَّما الْخَمْرُ والْمَيْسِرُ والأنصابُ والأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عملِ الشَّيْطانِ فاجْتَنِبُوهُ ﴾ [المائدة: ٩٠]

ويظن هذا البعض من الناس أن كلمة «الاجتناب» أقل من كلمة التحريم.

ونحن نقول لهذا النوع من البشر :

لقد ظلمت نفسك؛ لأنك تريد بالتفكير التحايل على الله .

إن الإنسان إذا قيل له : «لا تكلِّم فلاناً» فيكفى فى إطاعة ذلك أن يوجد الإنسان مع فلان ، ولا يتكلم معه .

ولكن إذا قيل للإنسان : «اجتنبْ فلاناً» ، فمعنى ذلك ألاَّ يتكلم الإنسان مع فلان هذا ، وألا يراه ، وأن يبتعد عنه .

لذلك فعندما يقول الله فى أمر الخمر : ﴿فاجتنبوه﴾ فهذا أشد من التحريم .

أى : ألاَّ يوجد الإنسان معها فى مكان .

فأيهما الأقوى؟

أن يوجد الإنسان فى منطقة التحريم للخمر .

أم أن يوجد الإنسان فى منطقة اجتناب الخمر . . ؟

فإذا كان الله قد أمر الإنسان بتحريم الخمر فقط ؛ فإن معنى ذلك ألا يوجد أى مانع من أن يوجد الإنسان فى مجالس الخمر وألا يشربها ، لكن وجود الخمر فى دائرة الاجتناب معناه أن كل الملابسات التى تتعلق بها حرام .

وهكذا يمكن أن نرى قول الله لآدم :

أنا سأسكنك فى جنة التدريب على الحياة وأقول لك : هذه هى أوامرى . . وهذه هى النواهى التى يجب أن تبتعد عنها . . فكل ما فى الجنة حلال لك طعامه إلا هذه الشجرة .

وهنا نعرف أن عماد التكليف هو «الأمر والنهى» ويحذِّر الله آدم من الشيطان :

- إن الشيطان أيها الإنسان عدو لك لن يتركك فى حالك ، وهذا العدو سيثير أمامك المغريات حتى تعصى الله .

وقد يقول قائل :

- ولماذا أرسل الله الشيطان ليعكِّر صفو مزاجنا؟

وهنا نقول لهذا القائل :

- لا . . إن الشيطان لم يوجد ليعكر مزاج الإنسان ، ولكن لأنه إذا لم يوجد فى الكون ما يثير رغبة الإنسان فى المعصية فربما صارت الطاعة أمراً عادياً .

لكن عظمة الطاعة هى أن يوجد الإغراء بالمعصية ، ويقول الإنسان : «لا لن أعصى الله» .

إذن : فإنه يمكننا الآن أن نعرف أن فكرة وجود الشيطان هى استبقاء لحرارة التكليف ، ومقابلة العبودية لله بالطاعة لأوامر الله .

ولنفترض أن الشيطان لم يوجد، إن ذلك معناه أن الطاعة تدخلها الرتابة والملل.

ولنضرب مثلاً على ذلك:

إن أحداً منا لا يفكر فى أن يأكل لحم الخنزير، ومن لم يتعود أن يشرب الخمر فهو لا يفكر فيها، هنا قد يكون الامتناع رتابة.

والله يريد أن يكون الامتناع عبودية له؛ لذلك فلا بد من وجود من يحرك رغبة الإنسان فى المعصية عن طريق الإغراء، ولا بد أيضاً من التزام الإنسان بما أمر الله، هذا هو معنى العبودية؛ لذلك كان الأمر السماوى لآدم:

- اذكر جيداً أن هناك عداوة مسبقة بينك وبين الشيطان.. إنه عدو لك ولزوجك فلا داعى لأن يخرجك الإغراء من جنة الطاعة لله.

وهذا هو جوهر التكليف للإنسان إلى أن تقوم الساعة، أمر ونهى وتحذير من شيطان فيه عداوة مسبقة بالنسبة للإنسان.

فما هى العداوة المسبقة للإنسان؟

إن كلمات الله الباقية الخالدة تقول:

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ (٧١) فَإِذَا

سَوَّيْتُهُ[1] ونَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ[2] (٧٢) فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٧٣) إِلاَّ إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٧٤) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥) قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ[3] وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (٧٦)﴾ [سورة ص]

فالأمر السماوى للملائكة أن يسجدوا لآدم بعد أن ينفخ الله فيه الروح، والملائكة لم تسجد لآدم نفسه، ولكنْ طاعةً لصاحب الأمر بالسجود لآدم.

والملائكة أيضاً أنواع:

هناك ملائكة اسمهم «المهيمون» لا يعرفون شيئاً عن الخلق كله، وهم «عالون» لا يفكرون إلا فى الخالق سبحانه، ولا وعى لهم بالدنيا أو آدم، ويسبّحون الله فى الليل والنهار.

و لكن هناك ملائكة من نوع آخر اسمهم: "المدبرات أمراً" هؤلاء الذين خلقهم الله ليدبروا للإنسان أمر وجوده، وإليهم صدر أمر الله

(١) سوّيته: أتممت خَلْقه وصوّرت هيئته بالصورة الإنسانية.
(٢) سجود تحية وتكريم.
(٣) عن عائشة قالت قال رسول الله ﷺ: «خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وُصف لكم» أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٩٩٦) وأحمد في مسنده (٦/ ١٥٣، ١٦٨).

بالسجود لآدم، وذلك علامة الخضوع لهذه المهمة.. خدمة الإنسان فى أمر وجوده.

وكان إبليس حاضراً فى لحظة الأمر لهم بالسجود.

وقد يقول قائل:

- إن إبليس لم يقبل السجود لغير الله.

هنا نقول:

- وهل أمر أحدٌ إبليس بأن يسجد لغير الله؟.. إن الملائكة سجدوا تنفيذاً لأمر الله، وإذا كان إبليس لم يسجد فلأنه علَّل أمر عدم السجود بقوله:

﴿ أأسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا (٦١) ﴾ [الإسراء: ٦١]

إن إبليس يظن أن عنصر الطين أقل من عنصر النار فيقول: ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ ﴾[الأعراف: ١٢] وهكذا نرى أن امتناع إبليس ليس بسبب عدم الرغبة فى السجود لغير الله، وإنما بسبب الاقتناع أنه خير من آدم.

وعندما نرى كيف عرض القرآن هذه المسألة، نجد أنه عرضها بأسلوبين:

أولهما: ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ ﴾ هذه فى سورة ص.. فى الآية رقم ٧٥ من هذه السورة.

وفى آية ثانية يأتى الأسلوب الثانى فى سورة الأعراف فى الآية رقم ١٢ ﴿ **ما منعك ألاّ تسجُد** ﴾

إن المعنى واحد فى الآيتين، ومن هذا نفهم أن إبليس أراد السجود، ولكن هناك قوة منعته من رغبة السجود، وهذه القوة أقنعت إبليس ألاّ يسجد.

وكان لا بد لنا أن نعرف ما المانع؟

هل هو من نفس إبليس أم من غير إبليس؟

ونحن نعرف أن المانع هو عدم الاقتناع، أى: من نفس إبليس.

من فيض الرحمن

كرامة الإنسان

إن التكبر عن تنفيذ منهج الله معناه الطرد من رحمة الله، وإبليس لم يكن مَلَكًا، وإنما كان من الجن ففسق عن أمر ربه [1]؛ فاستحق اللعنة، والإنسان الذى نسى عن غفلة، ثم عزم على المتاب فتحت له الأبواب.

لقد أخذت قضية امتناع إبليس عن السجود مع الملائكة كثيراً من الجدل.

وأراد بعض السطحيين من الباحثين أن تشكل هذه القضية فى القرآن تناقضاً.

لماذا؟

لأنهم يقولون: إن الله عندما أمر الملائكة بالسجود لآدم ولم يسجد إبليس، فكيف يؤاخذه الحق سبحانه وتعالى على أمر لم يدخل إبليس فى نطاقه؛ لأنه ليس من الملائكة.

والذى يقرأ القرآن بفهم جيد لا يمكن أن تثور فى نفسه شبهة تعارض بين الآيات.

وعندما نستعرض الآيات الواردة فى هذه المسألة، فإننا نجد نصوصاً قرآنية تدل على المراد والهدف من النص، ونصوصاً أخرى قد تدل على

---

(١) وفى هذا يقول رب العزة: ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه .. (٥٠)﴾ [الكهف].

المراد والهدف من التزام الكائنات كلها بأوامر الله.

وكثيراً ما يخطىء الناس فى فهم آيات الالتزام.. فيقرر إلزام الناس بأشياء، وقد لا يلزم بعض الناس بأشياء.

*** بمعنى آخر..**

إن النص الذى ورد عن الأمر بالسجود هو نص يلزم الملائكة بالسجود لآدم.

وقلنا: إن الملائكة المقصودين بأمر السجود لآدم هم «المدبرات أمراً».

والنص القرآنى الصريح فى قوله تعالى:

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ [1] فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً (٥٠) ﴾ [سورة الكهف]

والذين يريدون أن يفكروا بتجاوز لحدود التفكير، ويقولوا: ما دام إبليس من الجن وليس من الملائكة، فكيف يشمله أمر السجود؟

ونقول نحن:

- ما معنى أن إبليس كان من الجن؟

(١) ليس السجود لآدم، وإنما السجود هو لأمر الآمر وهو الله، والسجود لآدم لإظهار عظمة الله فى خلقه وقدرته على تسويته وتصويره.

إن الجن والإنس من مخلوقات الله، والإنس والجن هما مناط التكليف فى الأجناس، وللاثنين قدرة على الاختيار وقد يصل الجن بتقواه وبالالتزام بمنهج الله إلى درجة النورانية بالتوحيد والتقيد والأخلاق فيكون فى صف الملائكة المأمورة فيدخل فى الأمر بالمطلوب، وعندما أعرض ونأى عن الأمر فقد فسق عن أمر ربه، فاستحق الطرد فهو بعَجَله كان فى عداد الملائكة، وبتكبُّره يرجع إلى الاختيار المغرور.

أما بقية المخلوقات من الأجناس فلا اختيار لها؛ ولذلك فلا تكليف عليها.

وتدل على ذلك الآية الواضحة فى مسألة الأمانة، وكيف عرضها الله على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وحملها الإنسان..

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً (٧٢) ﴾

[سورة الأحزاب]

ما هى الأمانة؟

الأمانة كما نعرفها هى أن يوجد حق لك عند سواك، ولا حُجَّة لك ولا دليل عندك عليه إلا أمانته فى أن يعترف بأن لك عنده هذا الحق، أو أن ينكر أن لك عنده هذا الحق.

أما إذا كان هذا الحق الذى لك عند آخر موثقاً بورقة مكتوبة كإيصال

أمانة أو بشهود.. فليس ذلك أمانة.. إنه دَين مكتوب.

الأمانة إذن أن يستودعك إنسان شيئاً، أو أن تستودع أنت شيئاً عند إنسان آخر.. ولا شاهد على ذلك إلا الذمّة والضمير، فمن يعترف بالأمانة فهذا بفضل الذمة والضمير، ومن لا يعترف فذلك أيضاً بسبب الذمة والضمير (١).

إذن: فالأمانة فيها «حرية» للإنسان أن يعترف بها أو ينكرها، وهكذا تكون الأمانة وليدة الاختيار بالإقرار والاعتراف.

لذلك فعندما عرض الله الأمانة على السموات والأرض وأبين أن يحملنها.. فليس «الإباء» هنا دليل معصية؛ لأن المسألة ليست تكليفاً إنما عرض واضح:

إما أن تقبل السموات والأرض هذه المهمة، وإما أن ترفض؛ لأن العرض معناه أن المعروض عليه حُرٌّ فى أن يقبل، أو يرفض، ولا يقع عليه إثم إنْ قَبِل العرض، ولا يقع عليه إثم إن رفض العرض.

لذلك فرفض الأرض والسماء لحمل الأمانة ليس ذنباً، وليس فى ذلك الرفض أية معصية.

وإليكم مثالاً من الحياة تتمثل فيه كل مشاكل الحياة فيما يتعلق

(١) ولذلك يقول سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النساء]. فلو كانت الأمانة هى نفسها الدين المكتوب لما احتاجت لتذكير من الله بها؛ فهناك صك واجب الأداء.

بالأمانات :

يأتى إنسان لإنسان آخر ويقول له :

– أنا عندى مائة جنيه ، وأخاف أن تمتد يدى إليها فأصرفها فى غير ضرورة ، وأنا أريدها لأمر قد يكون مهماً . . فبالله عليك خذ هذه المائة جنيه أمانة عندك .

الإنسان الآخر المعروضة عليه هذه الأمانة قد يقبل وقد يرفض ، وحين يأخذ المائة جنيه فإنه يقدِّر لنفسه لحظة الأخذ أنه قادر على أن يؤدى هذه الأمانة ويرجعها إلى صاحبها عندما يطلبها ، ولا أحد يتهم هذا الإنسان من البداية أنه سوف يأخذ المائة جنيه وينوى ألا يردها .

لا . . إن نية الرد موجودة ؛ لأن الإنسان يقدِّر أمر نفسه لحظة الموافقة أن يتحمل هذه الأمانة ، وفى أعماقه قرار بأن يأخذ المائة جنيه ، وأن يحفظها إلى أن تأتى اللحظة التى يقول فيها صاحب المائة جنيه : «أريد نقودى» فيردها إليه .

ولكن الموقف قد يختلف لحظة رد الأمانة : هل تظل ذمة الإنسان هى نفسها ذمة الإنسان لحظة استلام الأمانة . . أم تتغير هذه الذمة ؟

هذا هو الخوف . .

الإنسان لحظة تحمل الأمانة يكون عازماً على رد الأمانة .

وهل يضمن الإنسان ظروفه لحظة أداء الأمانة ؟

وهل يضمن الإنسان ألاّ تجيء ظروف تجعله يتصرف فى النقود، وبعد ذلك يأتى صاحبها ليطلبها فينكر من أُودِعَتْ عنده الأمانة؟

إذن . .

فهناك فرق بين الحكم على النفس لحظة التحمل للأمانة . . والحكم على النفس لحظة الأداء .

إن السماء والأرض لم تأمن أىٌّ منهما نفسها ساعة الأداء، فقالت كل منهما : «قد يحدث لى ما يجعلنى أخالف أو أعصى ما اتفقت عليه، وأنا من أول الأمر لا أريد أن يكون لى حق الاختيار فلا بد أن أرفض هذه الأمانة . . أى : أن أرفض الاختيار» .

أما الإنسان فقد قال : «أنا عاقل أزنُ الأمور بمقياس التعقُّل، وقادر على تحمل هذه الأمانة، وقادر على قبول مسئولية الاختيار» .

الإنسان إذن قدَّر أمره لحظة تحمل الأمانة، ولكنه لم يقدِّر أمره لحظة أداء الأمانة، لم يكن يقدّر أنه سوف يتعرض لمغريات كثيرة جداً، قد تضطره إلى أن يخالف أو يعصى .

ولذلك عقَّب الله على قبول الإنسان للأمانة فقال : ﴿ **وحملها الإنسانُ إنَّهُ كان ظلُوماً جهُولاً (٧٢)** ﴾ [الأحزاب]

أى : أن الإنسان كان يجهل قدراته لحظة الأداء، وظلوم لأنه حمل نفسه مسألة كبيرة .

إذن: فالسماء والأرض والجبال قبلوا موقف التسخير والابتعاد عن مسئولية الاختيار وأمانة هذا الاختيار، وبذلك يركن كل منهم إلى موقف ابتغاء السلامة بالابتعاد عن أمانة الاختيار.

لكن الإنسان قَبِلَ الدخول إلى التجربة، وحمل مسئولية الاختيار.

ويحذرنا الله سبحانه وتعالى من الغرور بالنفس لحظة تحمُّل أمانة مسئولية الاختيار؛ لأن هناك اختباراً يومياً هو لحظة أداء هذه الأمانة، إن لحظة أداء الأمانة هي التي تدير حركة الحياة.

ولهذا فالإنسان مُطالب بتدبير الأمر لحظة أداء الأمانة، وهل يقوى على نفسه ويدبر أداء الأمانة على أكمل وجه أم لا ؟

وتدبير الأمانة لا بد له من منهج هو المنهج الذى تعلَّمه آدم فى جنة الإعداد لمسئولية الحياة.

ولكن هناك من الأمور ما يتشابه فيها الأمر على الإنسان.

لذلك تجد الحلال بيِّناً، والحرام بيِّناً، وبينهما أمور متشابهات [(١)].

والأمور المتشابهات التى تحمل شبهة الظن فلا داعى لها.

واسترسالاً فى قضية الدين وتحمل الأمانة يأتى الحق سبحانه وتعالى

---

(١) عن النعمان بن بشير أن رسول الله ﷺ قال: «إن الحلال بين، والحرام بين، وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع فى الشبهات وقع في الحرام، كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله محارمه» أخرجه مسلم فى صحيحه (١٥٩٩).

ويحمى الإنسان من نفسه لحظة أداء الدَّين:

﴿ ولا تسأموا [1] أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً إلى أجله ذلكم أقسط عند الله ﴾ [من الآية ٢٨٢ من سورة البقرة]

إن الله يقدّر موقف المستدين المحتاج.. وموقف من يملك الفائض الذى يقرض المحتاج، وفى ذلك حماية، لا لمن يعطى القرض ولكن لمن يأخذ القرض؛ لأن من يعرف أن عليه ديناً مكتوباً، فإنه يعرف أنه لا مفر من أداء هذا الدين، وعليه أن يعمل بجد واجتهاد ليسدد الدين، وحتى لايفكر فى أن يماطل أو يأخذ مهلة..

لماذا؟

لأن هذه المسألة لو نجح فيها المستدين، فإنه قد يفسد حركة التعامل فى الوجود.

والله يريد لحركة التعامل فى الوجود أن تستمر.

إن الإنسان إذا لم يكتب الدَّين الذى عليه ولم يسدده.. فماذا يكون موقف الدائن؟

إنه لن يعطى أحداً بعد ذلك؛ وفى هذا تعطيل لحركة الحياة؛ لأن الانقباض يحدث، ويقع كل محتاج فى براثن التعطل، ولا يعمل إلا من يجد مالاً.

(١) لا تسأموا: لا تملوا.

والله يريد لكل إنسان أن يعمل ، من عنده مال ومن ليس عنده مال ، ذلك لأن حركة الوجود ليست تبرعاً من شخص لآخر . .

ولكن حركة الوجود والحياة محكومة بقانون النفع لكل شخص .

مثال ذلك : قد نرى في الصباح إنساناً يحمل برميلاً ينزح به المجارى . . لو أن هذه العملية متروكة للتطوع لما قام بها أحد ، ولكن لأنها مرتبطة بحاجة الإنسان للطعام وحاجة أسرة الإنسان إلى المال ، فإن الإنسان يقوم بها ليحقق أمور حياته .

إن الله يربط حركة الحياة بضروريات الحياة .

وحين يربط الله ضروريات الحياة بحركة الحياة فإن كل إنسان يدير حركة حياته ، ويعمل العمل الذى يكفل له أن يرعى أموره وأمور أسرته . . مهما صغر شأن هذا العمل أو كبر .

ولو لم تكن حركة الحياة كلها مرتبطة بضرورات الحياة بالنسبة لكل فرد . . لفسدت حركة الحياة جميعها .

ولذلك كان من حكمة حركة الحياة أن يجد إنسانٌ وألاّ يجد إنسانٌ آخر .

لأنه لو وجد كل إنسان كل حاجاته لفسدت حركة الحياة ولتعطلت .

وهنا حكمة تقسيم العمل .

ولذلك نجد ضرورات الحياة هى التى تعطى الإنسان القدرة على

الحركة فى هذا العالم .

وإن لم ينشأ الاحتياج فلن تنشأ الحركة .

ومن حكمة الله سبحانه وتعالى أن يخلق طبقة للأعمال التى نراها راقية ، وطبقة أخرى للأعمال التى نراها غير راقية .

ومن حكمة الله سبحانه وتعالى أن خلق الزمن دولاً ، وحركة متبادلة .

فالذى يحسن استقبال قضاء الله حين كانت له حاجة ولا يتكبر على أى سبب من أسباب الحياة . . فإن الله يجازيه على ذلك . . وكأن الله يقول :

- لقد أديت أيها الإنسان حركتك فى الحياة ورضيت بقدرى . . وقمت لسدّ ضرورات حياتك بأحقر الأعمال . .

لذلك ليس لك عندى من جزاء سوى أن أجعلك سيداً بقية أيام حياتك .

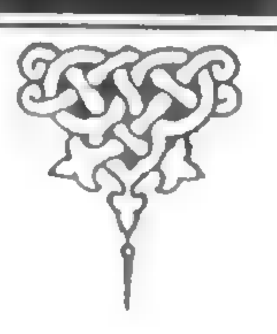
ولننظر إلى الناس جميعاً . . نجد أن لكل ناجح فى الحياة بحق مقدمة من كفاح ومقدمة من احتياج ، وكأن الكفاح لإشباع الاحتياج .

أما الذين يريدون أن ينعموا بحركة الآخرين فهؤلاء هم صعاليك الحياة .

وأى تقنين يساعد على هذا فإنه يهبط بمستوى البشر إلى الحضيض .

من فيض الرحمن

التوبة طريق الغفران



إن أصحاب الاختيار هم أهل الترقّى، وآدم باختياره كان أرقى من الملائكة؛ فالملائكة مأمورة، هذه وظيفتها، أما آدم فهو مختار، وهذه وظيفته، ووظيفة الاختيار فى مشقات، فمن قطع المشقات ارتقى؛ لأنه يعيش بين البدائل، فمن اختار إرادة الله أصبح مراداً.

وقد حدّد الله سبحانه هوية إبليس بأنه من الجن، وليس من الملائكة.

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً (٥٠) ﴾ [الكهف: ٥٠]

ولكنّا الآن نريد أن نعرف، لماذا وقف إبليس بجانب الملائكة لحظة الأمر بالسجود ولحظة امتناعه عن السجود؟

نقول:

إن الملائكة عندما تلقَّوا أمر السجود.. سجدوا لأنهم لا يعصون لله أمراً ويفعلون ما يؤمرون، وليس لهم من الاختيار شىء.

ولكن آدم وإبليس.. أى: الإنس والجن.. هما الجنسان اللذان وقع عليهما مسئولية الاختيار.. بمعنى أن الله خلق لهما قوة اختيار يطيعان بها، وقد يعصيان بها.

وقوة الاختيار تتيح للكائن أن يحمل نفسه على طاعة الله،

ولا يخالف أمر ربه.

ونستطيع أن نقارن مكانة ومنزلة من له قدرة اختيار، ومن ليس له قدرة اختيار.

إذا قارنَّا مكانة آدم عندما يطيع الله بمنهج الله وبين الملائكة الذين ليس لهم اختيار، وهم مُجْبَرون على الطاعة.. فإن منزلة آدم أرقى..

وكذلك كانت منزلة إبليس.. كانت منزلة راقية؛ لأن الله خلق فيه عنصر الاختيار وله القدرة على العصيان، لكنه قبل أمر السجود كان يقف موقف الطاعة بالاختيار؛ لذلك كان فى مقدمة الملائكة.. وكان فى ذلك كما يقولون: «طاووس الملائكة» فهو كالطائر الفخور بشكله وقدرته بين سائر الطيور؛ لأنه ارتفع إلى مرتبة الطائع الدائم، وذلك باختياره.

ولنا أن نعرف أن إبليس أخذ مكانته وكان يحضر مع الملائكة؛ لأنه سما بالاختيار إلى مرتبة الطاعة.

وحين يوجه الله الأمر إلى الملائكة.. وكان بينهم إبليس.. فإذا كان أقل مكانة أو مختلفاً.. ألا ينسحب الأمر إليه أيضاً؟..

إن الأمر بالسجود ينسحب إليه..

هَبْ أن رئيساً دخل على وكلاء الوزارات وكان بينهم وزير أو مدير.. ووقف وكلاء الوزارات.. أليس الوقوف أيضاً ينطبق على المدير أو الوزير؟

إن الأمر حين صدر من الله الأعلى . . فإنه ينصَبُّ على جميع الحضور بما فيهم إبليس الذى اختار مكانته مع الملائكة بالطاعة، رغم أن له قوة اختيار للطاعة أو العصيان .

وإما أن تكون منزلته أرقى من الملائكة، وإما أن تكون مرتبته أقل من الملائكة، وذلك معتمد على الطاعة أو العصيان .

فإن اعتبرنا إبليس أعلى من الملائكة، فقد كان يجب أن يسارع بتنفيذ الأمر بالسجود .

وإن اعتبرنا إبليس أقل من الملائكة، فإنه سيبحث أمر السجود بالعصيان .

وإبليس أخذته العزة بالإثم، قال تعالى : ﴿ **مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ** (١٢) ﴾

[الأعراف]

إن الله يريد أن يذكِّر آدم بمعوِّقات اليقين، ومعوقات سلوك الإيمان من النفس ومن الشيطان .

وعداوة إبليس لآدم كما نعرف هى عداوة مسبقة .

إذن : فقد وضع الله إبليس فى جنة التدريب على مهمة الخلافة فى الكون .

وألقى الله إلى آدم أمراً.

وألقى الله إلى آدم نهياً. .

وحذّره من عدوّه إبليس.

حين ذلك لن يجد آدم عذراً لو أخطأ.

ولكن الله قال فى كتابه ما ينبهنا إلى غفلة آدم:

﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (١١٥) ﴾

[سورة طه]

نقول هنا:

إن كلمة النسيان كان يجب ألا يحاسب عليها آدم. . فلماذا إذن تم حسابه على النسيان؟

لأن الله لم يكلفه إلا بشيء واحد. هو الأمر فيما فيه نعمة، ونهى الله آدم عن شيء واحد، وهو الاقتراب من الشجرة.

إذن: فالنهى شمل أمراً واحداً، وليست أموراً متعددة حيث يمكن أن نقول: إن آدم تاه فيها كلها؛ فنسى بعض الأمر.

وإذا كان قد نسى الأمر الواحد. . فقد نسى عموم التكليف.

ولو كانت هناك أمور كثيرة يتضمنها التكليف ونسى بعضها وذكر بعضها لكان من المعقول أن نقول: إنه لم يَعْصِ فى عموم التكليف.

ولكن القائل له ذلك الأمر هو الله وبالخطاب المباشر ، وليس هناك واسطة بينه وبين الله ، فليس هناك مبرر فى أن ينسى هذا الأمر .

إذن : فالنسيان بالنسبة لظروف الأمر هو نسيان ما كان يصح أن يكون من آدم .

وهنا أيضاً ينبغى أن نفطن إلى شىء من قول هؤلاء الذين يقولون : «إن آدم نبىّ ، فكيف يعصى الله والأنبياء معصومون»؟

إن هؤلاء يدخلون بأنفسهم إلى المتاهات ، وإلى هؤلاء نقول :

اقرأوا القرآن جيداً ، وافهموا عن الله فهماً جيداً .

إن آدم أبو البشر .

والبشر سينقسمون إلى قسمين :

إلى رسل يبلغون رسالات الله .

وإلى مرسَل إليهم ليستمعوا إلى رسالات الله .

والرسل يجب أن يكونوا معصومين . . لأنهم قدوة فإذا أمروا أتباعهم بشىء ثم خالفوه هم ، فإن الأتباع يقولون : «أليس من الأجدى أن تأمروا أنفسكم بهذا الأمر ، وأن تكونوا أسوة لنا تطبقون الأمر على أنفسكم» .

وإلا فإن الإنسان يفقد مثله الأعلى . . لو خالف الرسل . . لذلك يجب أن تكون فى الرسول عصمة .

لكن القسم الثانى من ذرية آدم وهم المرسل إليهم عُرضة أن يطيعوا وعرضة لأن يعصوا . . منهم الطائع ومنهم العاصى .

وآدم أبو الصنفين من البشر .

إذن : فيجب أن يكون فى تجربته ما يمثل الصنفين : صنف العصمة بالنسبة لذريته من الرسل ، وصنف تتأتى منه المعصية كبقية المرسل إليهم .

ومادامت المسألة تجربة يتعلم منها آدم . . فقد قلنا : إن التدريب لا عقوبة على المخالفة فيه . .

ولكن هل كان خطأ آدم قبل اختياره كرسول أم بعد ذلك؟

إن الذين يؤمنون بالله . . يقرأون كتاب الله ويفهمون . . قال الله سبحانه :

﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ [1] عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ (١٢١) ثُمَّ اجْتَبَاهُ [2] رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ (١٢٢) ﴾ [سورة طه]

كانت مخالفة آدم إذن قبل أن يختاره الله كرسول وقبل اجتبائه كنبىّ .

وذلك حتى لا يقول أحد : «كيف عصى آدم وهو رسول؟» .

(١) طفقا يخصفان : أخذا يلزقان ورق الجنة ببعضه ليسترا به عوراتهما .
(٢) اجتباه ربه : اختاره واصطفاه .

إن آدم لم يعصِ وهو نبى . .

إن آدم مثل جميع أبنائه . . فى الفترة الأولى ، وفى جنة التدريب كان من الممكن أن يطيع وأن يعصى .

ولكن بعد ذلك «اجتباه الله» أى : أعطاه مرتبة النبوة . . حتى يبلغ أبناءه وذريته .

وهذا يدل على أن غواية آدم تمت فى فترة التجربة التى يمثل فيها آدم جميع ذريته .

وإن لم يَعْصِ آدم فى فترة التجربة وجاء قوم من أبنائه فعصوا . . فكيف يعرفون أنَ الله يقبل التوبة؟

إن التربية لآدم كانت تقضى أن يتميز بالاختيار . . ثم الخطأ . . ثم التوبة ، حتى تعرف ذرية آدم أن الله يقبل التوبة بشرط أن تكون المعصية فيها اتهام للنفس ، وليس فيها اتهام لصاحب الأمر بالتكليف .

إن إبليس عصى ربه ، وعُوقب بالطرد واللعنة .

وآدم حين عصى ربه تلقَّى كلمات [1] من ربه فتاب عليه .

إذن : ما الفرق بين إبليس وآدم؟

---

(١) من هذه الكلمات ما ذكره ابن كثير فى تفسيره (١ / ٨١) عن مجاهد : اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك ، رب إنى ظلمت نفسى فاغفر لى إنك خير الغافرين : اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك ، رب إنى ظلمت نفسى فارحمنى إنك خير الراحمين ، اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك رب إنى ظلمت نفسى فتب على إنك أنت التواب الرحيم

إن إبليس له معصية . . وآدم له معصية . فلماذا كانت معصية آدم هى القابلة للتوبة . . يعلّمه الله فيها الاستغفار منها والتوبة عنها .

ما الفرق إذن؟

إن معصية إبليس . . معصية فى القمة ؛ لأنه رد الأمر على صاحب الأمر وقال : ﴿ أأسجدُ لمن خلقتَ طينًا (٦١) ﴾ [الإسراء]

﴿ أنا خيرٌ منه خلقتني من نارٍ وخلقته من طينٍ (٧٦) ﴾ [ص]

ومعنى ذلك : «كيف تكلّفنى يا رب أن أسجد له؟» إن فى هذا رد أمر على صاحب الأمر وعدم تنفيذه ، وهذه معصية القمة فى الكفر .

أما آدم فمسكين . . ﴿ قالا ربنا ظلمنا أنفسنا . . (٢٣) ﴾ [الأعراف]

أى : اعتراف بحكم الله وأمر الله ، لكن لم يقدر آدم على نفسه ، إنه يطلب المغفرة والرحمة حتى لا يكون هو وزوجه من الخاسرين :

﴿ قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونَنَّ من الخاسرين (٢٣) ﴾ [الأعراف]

وعلى مثل هذا القياس تكون المخالفات لمنهج الله فى الأرض ، إن الذين يتكبرون على الله ، ويردون على الله حُكمه نقول لهم :

- أنتم كإبليس فى المعصية .

أما الذين يقولون : إن أمر الله واجب الطاعة ، ، لكنَّا ظلمنا أنفسنا . .

هؤلاء نقول لهم :

- أنتم يمكن أن تكونوا فى مناط التوبة ، ويمكن أن تدخلوا دائرة الاستغفار .

أما الذين يحاولون أن يتدخلوا فى تعاليم الله ويقولون : «هذا حرام كان يجب أن يكون حلالاً . . وهذا حلال ما كان يجب أن يكون حلالاً» . هؤلاء الذين يريدون أن يتدخلوا فى أحكام الله . . هؤلاء نقول لهم :

- أنتم كإبليس فى التوجُّه . . ومنزلتكم من الله كمنزلة إبليس من : الطرد واللعنة .

وأما الذين يقبلون منهج الله ويتهمون أنفسهم بالتقصير ، وأنهم لم يستطيعوا حمل أنفسهم على المنهج بكماله وتمامه ، فإن الله قد شرع لهم التوبة وشرع لهم المغفرة .

إن الذين يعترفون بالتقصير ويتوبون ، مثلهم كمثل آدم فى معصيته الأولى . .

أما الذين يرفضون منهج الله فمثلهم كمثل إبليس فى معصيته .

ومن هذا نستطيع أن نعرف كيف يبتعد الإنسان عن منهج إبليس ، فى رد الأمر على صاحب الأمر .

ومن هذا نستطيع أن نعرف كيف أن الغفلة يمكن أن يغفرها الله ؛ لأننا

نعرف ضعف نفوسنا أمام حكم الله .

و هنا تشير الآيات فى رمزية التدريب إلى أن آدم حينما أكل من الشجرة نسى ماذا؟ وغفل عن ماذا؟ هذه هى الإجابة .

لقد قال آدم : إن إبليس أغواه قائلاً : إن الله لم يمنعك من أن تأكل من هذه الشجرة إلا رغبة فى ألاّ تكون من الخالدين، وأنت يا آدم لو أكلت من الشجرة فسوف تكون خالداً لا تموت .

كان إبليس بذلك يحاول إقناع آدم أن الله يخدعه . . ويظهر هذا فى تلك الآيات :

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ (١١٦) فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ (١١٧) إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلا تَعْرَىٰ (١١٨) وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَىٰ [1] (١١٩) فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَىٰ (١٢٠) فَأَكَلا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ (١٢١) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ (١٢٢) ﴾ [طه]

(١) الظمأ : هو حر الباطن وهو العطش، والضحى : حر الظاهر .

إن خديعة الشيطان واضحة ، وكان على آدم أن ينتبه إلى أن إبليس لا يعرف تفاصيل الجنة ، إنه لا يعرف هل هذه الشجرة تضمن الخلود أم لا ! . كان على آدم أن ينتبه إلى أن الشيطان هو إبليس الذى قال لله :

﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي [1] إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٣٦) ﴾ [الحجر]

إن إبليس يعرف أن آدم به غفلة .

ولذلك فعلى الإنسان أن ينتبه إلى أن أى إنسان آخر يريد أن يبعده عن منهج الحق إلى منهج الباطل ، فعلى الإنسان أن يكون ذكياً ، وأن يجعل أىَّ رأى محل تمحيص ودراسة وقياس لهذا الرأى بمنهج الله .

إن ما حدث لآدم فيه رمز للمؤمن بأن يتعرف على المنهج المخالف لمنهج الله ، وأن يعرف أن أى عداوة لمنهج الله هى عداوة للإنسان ومستقبله .

لأن الإنسان قد يلتقى بآخر . . يرى هذا الآخر قدرة الإنسان المؤمن على الطاعة . . فيتساءل بينه وبين نفسه : «كيف أترك هذا المؤمن طائعاً ، وأنا غير قادر على الطاعة ؟ لا بد أن أغريه حتى يكون معى ؛ لأنى لم أقدر على أن أكون معه . كيف أترك هذا المؤمن مستمتعاً بجنة الطاعة ، وأنا أقاسى عذاب العصيان؟ لا بد أن أغريه وأغريه حتى يكون عاصياً مثلى . . فلا أراه خيراً منى فأحتقر نفسى» .

---

(١) أنظرني : أخرنى وأمهلنى ولا تمتني .

الفهرس

رقم الإيداع ٣٤١٣/ ٩٧
الترقيم الدولى I.S.B.N
٩٧٧/٠٨/٠٦٠٢/١
أخبار اليوم التجارية
مجمع ٦ أكتوبر